اقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٦

حياة موسى
أو
الكمال في مجال الفضيلة

غريغوريوس النيصي

منشورات المكتبة البولسية

حياة موسى

أو

الكمال في مجال الفضيلة

طبعة أولى

١٩٩٦

•

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب : ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف : ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب : ١٢٥ لبنان
هاتف : ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

بالتعاون مع

A.T.I.M.E.

رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى

مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي:
ص.ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٣٤٤٨٩٤/٦-٣٥٣٩٣٨
برقيا: اكليسيا
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال:
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
Tel: 05-326022
تلكس: 5378 OIK CY
تلفاكس: 05 - 324496

اقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص اللاهوتية

٦

حياة موسى
أو
الكمال في مجال الفضيلة

غريغوريوس النيصي

نقلها إلى العربية

الأب حنا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسية

عُرّب هذا الكتاب عن النص اليوناني الصّادر في سلسلة

SOURCES CHRÉTIENNES N⁰ 1bis

GRÉGOIRE DE NYSSE

Paris, Cerf, 1955

غُريغوريوس النِّيصّيّ

أولاً: حياتُه

وُلِد غريغوريوس في قيصريَّة كبادوكية نحو سنة ٣٣١ في أَسرةٍ عميقة الجذور في المكانةِ الاجتماعيَّة والأصالة المسيحيّة، وكان والدهُ باسيليوس القديم من أمراءِ المنابر في قيصريّة الجديدة، وأمّا والدتُه أميليا فكانت ذاتَ حسبٍ ونسَب، وذاتَ ضِلعٍ في المقامات المدنيّة والعسكريّة والبلاطيّة، وأمَّا الأسرةُ فعشرَةُ أبناءٍ ماتَ أحدهم طفلاً، ومات آخَرُ شابًّا وهو في غمرةِ الحياة النسكيّة، وارتقى أربعةٌ منهم مراقيَ القداسة هم ماكرينا الأُختُ البكر، وباسيليوسُ الكبير، وبطرسُ أسقف سيبسطيا، وغريغوريوسُ. وقد ورِثَ غريغوريوس ثقافةَ أبيه الواسعة، ونشأ على تحصيلِ العلم في غير تحديد، ضاربًا في آفاق المعارف الفلسفيّة والعلميّة؛ وفي حداثتهِ مال إلى الانخراطِ في السلك الكنسي، ثمّ مال عنه إلى علومِ البيانِ والبلاغة، واستهوتَهُ المنابرُ فجال في ميادينها منافسًا أُمراءَها بعمقِ تفكيره، وسعةِ مداركه، وانفتاحِ أُفقهِ، ورجاحةِ آرائه، وقد اقترن بفتاةٍ أغفلَ التاريخُ اسمها كما أغفلَ أَخبارهَا.

وفي سنة ٣٧٠ رُقّي باسيليوس إلى الأُسقفيّةِ على كرسيّ قيصريّة، وقد اشتدّت شوكةُ ڤالنسٍ ومضايقتُه للنِّيقويّين، فجنّد باسيليوسُ للدفاعِ عن العقيدة جماعةً من ذوي العقولِ الثاقبةِ والإيمان، ودعا أخاه غريغوريوس إلى أسقفيّةِ نيصّة، فقبلَ الدعوةَ على مَضض، وكان ذلك سنة ٣٧٢؛ ولكنَّ الأمورَ لم تَستقِمْ له في ميدان عملِه، وڤالنس عمِلَ على طردِ الأساقفةِ النّيقويّين، فاتّهم غريغوريوس بتبذيرِ المال، وبأنه رُسِم رسامةً غيرَ شرعيّةٍ، وأُسقِط عن كرسيّهِ ونُفيَ، ولبثَ في منفاهُ إلى أن مات ڤالنس وضعفت حدَّةُ الأريوسيّة، فعاد إلى كرسيّهِ في آخر سنة ٣٧٧، وفي مطلع سنة ٣٧٩ تُوفّي باسيليوسُ فكان على غريغوريوس أن يقومَ بجميعِ مَهامّ أخيه الرهبانيّة، واللاهوتيّة، والكنسيّة، وقد قامَ بها على أتمّ وجهٍ، واشترك في سينودس أنطاكية، وتألّقَ نجمهُ في سماءِ الكنيسة، فتوجّهت إليه الأنظار، وحملت عليه تيّاراتُ الأريوسيّينَ والسَّبليانوسيّين، فاستعان بشقيقه بطرس ودعا إلى انتخابه أسقفًا على سبَسْطيا سنة ٣٨٠، وجرّدَ قلَمهُ للنضالِ فهاجم أفنوميوس بعدّة رسائل بليغة، وهاجم أبوليناريوس برسالةٍ أُخرى دامغة.

وفي سنة ٣٨١ بلغ غريغوريوس الأوجَ في النشاطِ والهيمنةِ الفكريَّة. وعندما انعقد المجمع المسكوني في القسطنطينيّة بأمر من تيودوسيوس كان لغوريغوريوسَ فيه كلمةُ الافتتاح وتغليبُ الآراء التي ناضل هو وباسيليوس في سبيلها في حقلي اللاهوت والكنيسة. وقد انتدَبهُ المجمع هو واثنينِ من زملائهِ لمراقبةِ شؤونِ كبادوكية والبنطس الدِّينيّة، ثمّ طُلِب إليه أن يتوجَّهَ إلى بلادِ العرب للتوفيقِ بين أُسقفينِ يتنازعانِ كرسيَّ بُصرى، ولمعالَجةِ بعضِ البِدَعِ الفاشيةِ هُناك. وفي طريق عودتهِ إلى أبرشيّتهِ توقّف في أورشليمَ وزار الأماكنَ المقدّسة، وكان في نيصّة أواخرَ سنةِ ٣٨١.

وكان من عادةِ تيودوسيوس في القسطنطينيّةِ أن يدعوَ كل سنة إلى عقد سينودسٍ تعالَجُ فيه قضايا السَّاعة، وقد عُقِدَ السّينودسُ في ربيعِ سنة ٣٨٣، فألقى فيه غريغوريوس خطابًا في ألوهةِ الابنِ والرُّوحِ القدس. وكان شديد الحُظوة لدى الإمبراطور، وهو الذي أبّنَ الأميرةَ بولخاريا سنة ٣٨٥، ثم الإمبراطورة فلاسيلاّ بعد ذلك بقليل.

ومنذ سنة ٣٨٦، أَخذَ نجم غريغوريوس في الانحدارِ، فهُوجمَ في بعض آرائهِ، وانحرفَ عنه البلاطُ الإمبراطوريّ، وأخذ صوتُ الذهبيِّ الفم يُلعلعُ في سماءِ القسطنطينيّة، وانحصرت سُلطةُ أساقفةِ آسيةَ الصُّغرى في أبرشيّاتهم، وتوتّرتِ العلاقة بين غريغوريوس والمتروبوليت هلاّديوس. ومع ذلك كلّه فقد أجرى قلَمه في موضوعاتٍ روحيّةٍ متعدّدة باثًا فيها روحانيّتَه الناضجة، وخبرتَه الواسعة، وثقافته العميقة. ومن آثاره في هذه المرحلة من حياته «تفسيره لسفرِ نشيد الأناشيد»، ورسالته «في الكمال»؛ وقد عمل على مَهْرِ الحياة الرهبانيّة، التي نظّمها أخوه باسيليوس، بالقواعدِ الروحيّة التي كانت بحاجةٍ إليها؛ وفي هذه المرحلة الأخيرة أيضاً وضع كتابَه «حياة موسى» قبل أن يوافيَهُ الأجل سنة ٣٩٤.

ثانيًا: آثاره

لغريوريوسَ النيّصي آثارٌ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ ظهرَ فيها رجلَ ثقافةٍ فلسفيّةٍ وعلميّةٍ واسعة، ورجلَ عقلٍ ثاقبٍ ومتوهِّج، فكان من ألمع اللاهوتيّين، كما كان من أسمى النفوس روحانِيّةً، ومن أعمقِ الناظرين في الحياة الصوفيّة والنّسكية، ومن أهمّ آثاره:

أ. ضدّ أفنوميوس: وضع غريغوريوس أربعَ رسائلَ فنّدَ فيها آراءَ أفنوميوس، ففي الثلاثِ الأولى دحضَ ما جاء في كتابه «دفاعٌ أبعَدُ

من الدفاع»، وأسقطَ حججَ الأريوسيّة؛ وفي الرابعة فنّد ما جاء في «الاعتراف الإيمانيّ» الذي قدّمه أفنوميوس لتيودوسيوس في مجمع القسطنطينيّة الذي عُقِد سنةَ ٣٨٣.

٢. مواعظُ في التَّطويباتِ والصّلاةِ الربِّيَّة: يَسْعى غريغوريوس إلى أن يكتشفَ في التطويباتِ ثماني درجاتٍ في سلّم الكمالِ التي تقودُ إلى المشاهدةِ السَّعيدة. أمّا الصّلاةُ الربّيَّة فهو يُقدِّم لها بكلامٍ على ضرورة الصّلاة، ثم يُفسِّرُ طلباتها تفسيرًا أخلاقيًّا في غالبِ الأحيان.

٣. في البتوليّة: يُبرِزُ غريغوريوس في بحثِهِ هذا الفكرةَ التي يقومُ عليها مذهبهُ اللاهوتيُّ الصُّوفيّ، أي خَلقَ الإنسانِ على صورةِ اللّه؛ وهو يجدُ في التأمُّلِ والمشاهدةِ ما يُطهِّر ويرفعُ إلى ما فوق الحسِّيّاتِ، إذْ إن اللّهَ فوقَ التّصوُّراتِ البشريّة.

٤: مَواعِظُ في المَزامير: يُبيِّنُ غريغوريوس أوّلاً هدفَ المزاميرِ ونِظامَها، ثمّ يفسّرها تفسيرًا رمزيًّا؛ والمزاميرُ في نظرهِ خمسةُ كُتبٍ تُمثِّل الدرجاتِ الخمسَ في سُلَّم الكمال، ولعناوينِها معانٍ روحيَّة يُبرِزها في تقوى وورعٍ.

٥. مواعظ في سِفْر الجامعة: هي ثماني مواعِظَ يدعو فيها غريغوريوسُ النفسَ إلى التّعالي فوقَ الحواسِّ، وإلى الزُّهدِ بجمالِ الدّنيا، وإلى العبادة الصامتةِ للقدرةِ الإلهيّة في هيكل النفس.

٦. في الحياة المسيحيّة: إنّها في نظرِ غريغوريوس تَمثُّلٌ بالطبيعة الإلهيّة، والأمرُ ليس مستحيلاً وقد خلقَ الله الإنسان على صورتهِ.

٧. في الكمال: خلاصةُ الكلامِ فيه أنّ الكمال ثمرةُ عملِ المسيح في النفس.

٨. **حياة ماكرينا:** وهي تَنطوي على معلوماتٍ مختلفة في شأنِ الأسرة.

٩. **مواعظُ في نشيد الأناشيد:** يرى فيها الواعظُ قصّةَ اتحاد النفس بالله في زواج سرّيّ؛ وهو يُحلّق تحليقًا رائع البيان، بنفسٍ يغمرها الحبُّ الإلهيّ، موضحًا انطلاقَ النفسِ النشوى بحبِّ الله، في تصعيدِها غيرِ المحدودِ إلى الله غايةِ وجودِها.

١٠. **في المؤسّسة المسيحيّة:** وضع غريغوريوس هذه الدِّراسةَ في أواخر حياتهِ، وبعدَ «حياة موسى» التي سنخصّها ببعضِ الدرسِ في ما يلي، وقد وجَّهها إلى الرُّهبان لتكونَ لهم دليلاً روحيًّا؛ فعالَج في قسمها الأوَّل روحانيّة الحياةِ الرّهبانية التي من شأنها، بمعونةِ النعمةِ الإلهيّة، أن تحرِّرَ من أدرانِ الخطيئة، وأن تُتيحَ مشاهدةَ الجمال الإلهيّ، وتحقيقَ الاتحادَ بالمسيح؛ وعالج في القسمِ الثاني الحياةَ المُشتركة، حياةَ الكفرِ بالذات بالطاعة، كما عالج مهمّةَ الرؤساء وما عليهم من واجباتٍ.

١١. حياة موسى:

١. تاريخ وضع الكتاب

وضعَ غريغوريوس هذا الكتاب نحو سنة ٣٩٢ عن طلبِ أحد الرُّهبانِ، وكان قد تقدّم في السنّ، يدلُّ على ذلك، شيبُ شعره الذي يُشير إليه، والحسدُ الذي تعرَّض لِسهامِه وتحدّثَ عنه بمرارةٍ، والصِّراعات المسيحانيّة التي نشِبت في أواخرِ حياتهِ وتركت أصداءً واسعةً في الكتاب، وهذا النّضجُ الكامِلُ في التعليم الروحيّ الذي

تُسيطرُ عليهِ فكرةُ الكمالِ في كونهِ نموًّا متواصلاً. أضف إلى ذلك أنّ الكتابَ ثمرةُ تأمُّلٍ طويلٍ ظهرت آثارُه في تأْبينهِ لباسيليوس، وفي تفسيرَيْهِ للمزاميرِ ولنشيدِ الأناشيد حيثُ نجدُ تخطيطاً لدراسةِ الكمالِ المسيحيّ، يتمشّى عليه غريغوريوس ناهجًا نهجَ التفسيرِ الروحانيّ على الطريقةِ الأوريجانسيَّةِ، في استنادٍ إلى العهدِ الجديد من الكتاب المقدّس ولا سيّما رسائل القدّيس بولس.

٢. مضمون الكتاب

في الكتاب قسمانِ، قسمٌ تناولَ فيه المؤلِّفُ خلاصةَ الأحداثِ التي رافقَتْ حياةَ موسى مُسْتندًا فيها إلى روايةِ سِفْرَي الخروجِ والعدَدِ، وناهِجًا نَهجَ باسيليوسَ وفيلونَ اليهوديّ، أي مُعتمدًا حرفيّةَ التاريخ في تفسيرهِ، وراميًا أبدًا إلى استخراجِ المعاني الأخلاقيّةِ التي تُفيد وتَبني، وكأنّ حياةَ موسى سيرةُ أحدِ القدّيسين. وغريغوريوس يُضخِّم الأحداثَ بعضَ التّضخيمِ لإبرازِ الفائدةِ الأخلاقيَّةِ، ويشدّدُ على الظَّاهراتِ العجائِبيَّة من مثْلِ العلّيقةِ المُلْتهبة، ويُندّدُ بالتفسيراتِ الطَّبيعيَّةِ التي تُقصي الجانِبَ الخارِقَ، كتفسيرِ تكاثُرِ الضّفادعِ بالتكاثُرِ الطبيعيّ لا بأمرٍ من موسى؛ ويُسقط الجزئيَّاتِ الشّائنةَ أو يُضمُّنها معاني لائقةً، كاستيلاءِ العِبْرانيّينَ على أموالِ المصريّين. وهكذا فالقسمُ الأوّلُ من الكتاب تفسيرٌ حرفيّ يحملُ على التقوى.

أمّا القسمُ الثاني ففيهِ جوهرُ الكتابِ حَيث تُصبحُ حياةُ موسى صورةً للترقّي في مَدارجِ الكمالِ، ومثالاً للنفسِ في مسيرتِها الصُّوفيّة. وقد نهجَ غريغوريوسُ في هذا القسم نهجَ فيلونَ في التفسيرِ الروحيِّ، وأضافَ إلى طريقةِ فيلون طريقةَ التفسيرِ الرمزيِّ لِسفرِ الخروج

كما نرى بعضاً من ذلك في العهدِ الجديدِ ولاسيّما رسائلِ القدّيسِ بولس؛ فأحداثُ سِفر الخروجِ فيها لم تعُدْ صُوَرًا لحقائق روحيّة وحسبُ، ولكنّها تصبحُ صورًا لحقيقةٍ تاريخيّةٍ وروحيّةٍ هي المسيحُ والنظامُ الجديدُ الذي أقامَه. وهكذا فأهمُّ الأحداثِ في سفرِ الخروج مذكورةٌ في الإنجيلِ ومطبّقة على المسيح، من مثل الحيّةِ النُّحاسيّة، والمنِّ، والحملِ الفِصحيّ، والعمودِ النيّر؛ وهذه الطريقةُ الرمزيّةُ فاشيةٌ في كتابةِ بولسَ، والأمثلةُ كثيرةٌ نقتصر منها على قوله: «لا أُريدُ أن تَجْهلوا، أيّها الإخوةُ، أنّ آباءَنا كُلّهم كانوا تحتَ الغمامِ، وكلّهم جازوا في البحر، وكلّهم اعتَمدُوا في موسى في الغَمامِ وفي البحرِ، وكلّهم أكلوا الطّعامَ الروحيَّ نفسَهُ، وكلّهم شربوا الشّرابَ الروحيَّ نفسَه؛ فإنّهم كانوا يشربون من صخرةٍ روحيّة تتبعُهم، وهذه الصّخرةُ كانت المسيح... ولقد جرتْ هذه الأمورُ ليكونَ لنا فيها عِبرةٌ» (١ كور ١٠: ١ – ٦).

وممّا لا شكّ فيه أنَّ أوريجانُس سبقَ غريغوريوس إلى هذا النوعِ من التفسير، ولكنّ غريغوريوسٍ لم يُغرق في التّفصيل والتأويل كما فعل سابقوهُ، فاكتفى بالبارزِ من الأحداثِ، وجعلَهُ سلّمًا إلى قمّةِ الكمال.

٣. الكمالُ المَنْشود في الكتاب

موضوعُ الكتابِ هو الكمالُ عن طريقِ الفضيلةِ، وفيما يرى قُدامَى اليونانِ ان الكمال هو في أن يبلغَ الشيءُ تمامَهُ، يرى غريغوريوس أن الفضيلةَ سَيْرٌ إلى الأمام، وأنّ الكمالَ من ثمَّ نموٌّ دائمٌ وتطوُّرٌ متواصِلٌ؛ وموسى يُجسّدُ هذه الفِكرةَ في حياتهِ التي كانت مَسيرةً إلى أرضِ الميعاد؛ وهكذا فالكمالُ حركةٌ دائمةٌ نحوَ اللامحدودِ

واللامُتناهي، حركة «تنسَى ما وراءَها وتمتدُّ إلى ما أمامَها» (فيل ٣:١٣)، حركةُ إنسانٍ يَجدُّ إلى المجهولِ ويتفوَّقُ أبدًا على ذاتِهِ. ذلك هو الابتكار الرائع الذي تفرَّدَ به غريغوريوسَ. لقد تصوَّرَ فيلون وأوريجانسُ الحياةَ الرُّوحيّةَ مَراحِلَ متعاقِبةً، ولكنها لم يَجْعلاَ من الفضيلةِ حركةَ تجتازُ هذه المراحِلَ المتعاقِبة.

ويرى أفلوطين أنّ الحياة الروحيَّةَ تقومُ بإعادةِ النفسِ إلى طبيعتِها الحقيقيّةِ، وبتطهيرِها من كل ما تحملهُ من العناصرِ الغريبةِ، وهذا ما يذهبُ إليه غريغوريوس أيضاً، ولكنّه يرى أنّ طبيعةَ النفسِ الحقيقيّةَ هي في كونِها صورةً لله، وأنّ الحياةَ الروحيّةَ تقومُ بجلاءِ هذه الصّورة، وبتحوُّلِ النفسِ تحوّلاً مُتواصلاً إلى اللّهِ؛ والصورةُ يجبُ أن تُشبهَ صاحبِها وان تختلفَ عنه: فالروحِ المخلوقُ يُشبهُ اللّهَ في كونهِ «لا حدَّ لهُ»، ويختلفُ عنه في كونهِ حركةً لا محدودة؛ وهكذا فجوهرُ النّفسِ هو «اشتراكٌ» في الله دائمُ النموّ، وأبدًا غيرُ مُنْتهٍ. وقد ترفضُ الحريّةُ هذه الحركةَ النّاميةَ، فيكون من ذلك الشرُّ، والتنكُّرُ لطبيعتِها؛ وقد تسيرُ في تيّارِها فتكونُ الفضيلةُ وتحقيقُ الإنسانِ لجوهرهِ الحقيقيّ.

ولكنْ أيُّ الحركاتِ توجّهُ الإنسانَ إلى اللّهِ وتجعلهُ يتمثّلُ باللّهِ؟ فاللّه غيرُ متحرّكٍ وغيرُ قابلٍ التحوُّل، والنفس في جوهرِها حركةٌ؛ فكيف يتمُّ التمثُّلُ بين الحركةِ واللاحركةِ؟ والحلّ عند غريغوريوس في أنّ النموَّ حركةٌ، وفي أنّه ديمومةٌ في الحركة؛ وفي هذه الدّيمومةِ استقرارٌ هو تمثُّلٌ باللّهِ.

من ذلك كلّهِ نرى أنّ التّصعيدَ نحو الله هو حالةٌ ثابتةٌ، أي هو تفوُّقٌ على الذاتِ لا ينقطِعُ، في تجرُّداتٍ مُتعاقبةٍ تَسْتمطرُ نِعَمًا جديدةً لمراحلَ جديدة، وقد تشقُّ هذه التجرُّداتُ على النفس، وهي تحسبُ

أبدًا أنّها بلغتِ الغايةَ، حتّى إذا انفتحت بالتجرُّد الكامل على الله تستسلمُ لهُ استسلامًا كاملاً، وتُصبحُ، في تخلّيها عن كل هوىً، فانيةً في الحبِّ الصَّافي.

٤. غريغوريوس والعلوم القديمة في كتابه

يقفُ غريغوريوسُ من العلومِ الدنيويَّةِ موقفينِ مختلفَيْنِ، فهو من جهةٍ يُحرّض على اكتسابِها واستخدامِها في أمور الدين، وهو من جهةٍ أُخرى يحذّرُ من أخطارِها؛ وقد أكبّ هو على اكتساب ما استطاع منها، وعلى التَّعمُّقِ في أساليبِها، وقد ظهرَ أثرُها في كتابهِ، فنَحا نحوَ المدرسةِ السُّوفسطيّة الثانية، مدرسةِ هيماريوسَ وليبانيوسَ، واتَّبعَ نظامَها في التَّأليف، فانجرَّ إلى معالجاتٍ جانبيّةٍ كثيرةٍ، وإلى قياساتٍ جدليّة مُتسلسِلةٍ، وإلى أوصافٍ واستطراداتٍ تَسْتَهوي السُّوفسطائيّين، وإلى وجوهٍ كثيرةٍ من المجازِ والطباق والجناس وما إلى ذلك من ضروب البيان والبديع التي كانوا يرصّعونَ بها كتاباتهم، كما في قوله: «ظلمةٌ نيّرة»، و «الصعودُ إلى أسفل»، و «حركة ثابتة»...

وفي الحقلِ الفلسفيّ كان لأفلاطونَ التأثيرُ الأوسعُ في «حياةِ موسى»، فقد جاراهُ غريغوريوس في النظر إلى وهميّةِ العالمِ المادّيّ والتحرُّق إلى العودة، وفي تحليقِ النفوسِ المجنَّحةِ إلى الأعالي، متفوّقةً على ذاتِها، ومتنقّلةً من قمّةٍ إلى قمّةٍ أعلى، في سبيلِ الأسمى. فصورةُ النفسِ الخَفيفةِ، التي تمتدُّ بطبيعتِها إلى الخيرِ الجذّاب، منتشرةٌ في آثار أفلاطون وأفلوطينَ. ومن الآراءِ الأفلاطونيّةِ فكرةُ العودةِ إلى الكينونةِ بالتعرّي من الظاهراتِ الحسّيّة، ومُرادَفةُ الكينونةِ للخير، وسلبيّةُ الشرِّ، ومقارنةُ الشرّ بتمنُّعِ العين عن رؤيةِ النور، وتقسيمُ

النَّفس الى عقليّة وشَهوانيّة وغضبيَّة، وتشبيهُها بعربةٍ يجرُّها حصانانِ ويقودها العقل... وقد اختلفَ العلماءُ في موضوعِ المدرسةِ الفلسفيّةِ التي ينتمي إليها غريغوريوسُ وكان أرجحُ الآراءِ أنّ مذهبَ غريغوريوس هو صورةٌ أفلاطونيّةٌ خاصّةٌ، مستقلَّةٌ عن الأفلاطونيّةِ الحديثةِ، تجمعُ عناصرَ أفلاطونيّةً إلى عناصرَ أرسطوطاليسيّةٍ ورواقيّةٍ.

(هذه المقدّمة مُستوحاة في قسمٍ كبير منها من دراسات J. DANIÉLOU)

في حياة موسى المشترع
أو
الكمال في مجال الفضيلة

توطئة

عندما يُشاهِدُ جمهورُ النظّارةِ، في حَلَباتِ السّباق، مَن راهنوا على فَوْزهم وقد اندَفَعوا في الشَّوْط، ولم يَألُوا جهدًا في الإسراع، لا يتمالَكونَ مع ذلك، في سَوْرةِ تطلُّبهم للفوز، عن الهُتافِ بهم، مُتشوِّفينَ ومُطيفينَ على الحَلْبة بأعيُنهم، وهم يستحثّونَ الفارسَ (الجوكي) – على حدِّ ظنِّهم – على زيادةِ الحِدَّةِ في الاندفاع، ويُرافقون الخيولَ بطيِّ الرُّكب، ويُلوِّحون لها باليدِ وكأنَّها السَّوْطُ مشهورًا، لا أنّ هذه الأعمالَ تقودُ إلى الفَوْز، ولكنَّ ما يَرْبطهم بالخيَّالةِ من مرَدَّةٍ يَحملهم على التّأييدِ بالصَّوتِ واليد، هكذا يبدو أنّني أُعامُلك، أنت أشدَّ الأصدقاءِ والإخوانِ إيثارًا منّي، عندما أراكَ في مضمارِ الفضيلة تشتركُ في السّباقِ الإلهيِّ، وتندفعُ، بخُطىً سريعةٍ

وخفيفة، نحو الجزاء الذي دُعينا إليه من العلاء، فأحضُّك بإلحاح أن تغُذَّ في السَّير وتزيد في شدّة الاندفاع، ولا أفعلُ ذلك بدافعِ حميّةٍ متهوّرةٍ، بل رغبةً منّي في أن أراك، أنتَ الابنَ الحبيب، ناعمًا بجَمٍّ من الخير.

إنّك تطلبُ، في الرّسالةِ التي وجّهتَها إليّ أخيرًا، أن أُزوّدك ببعض الإرشاد في موضوع الحياةِ الكاملة، وقد بدَا لي أنَّ طلبَك جديرٌ بأن يُلبَّى؛ وقد لا يكون لك في أقوالي شيءٌ ذو فائدة، ومع ذلك فهي لن تذهبَ سُدًى إذا قدَّمتُ لك درساً في الطَّاعة[1]. فإذا كُنّا نحنُ الذين أُقمنا آباءً على مثل هذا العددِ الكبيرِ من النفوس نجدُ من اللاَّئقِ بشَيْبنا[2] أن يُلبّي طلبَ شبابك الرَّصين، كان من الطبيعيّ جدًّا أن يؤثّر فيك نموذجُ الطّاعةِ هَذا تأثيرًا شديدًا، وأن نكونَ لشبابك سببَ تدرُّبٍ على الخضُوعِ الطّوعيّ.

هذا وبعدُ فلا بُدَّ لنا من مُبادرةِ العمل، طالبينَ إلى الله أن يَهديَنا في ما نقول. وقد طلبتَ، أيّها الرَّأسُ العزيز، أن نُبيّن لك ما الحياةُ الكامِلةُ، حتّى إذا أجَلْتَ في ذلك النّظرَ، ووقعْتَ في جوابنا على ما تتوخّاهُ، تسعى في أن تُفيدَ من كلامِنا ما يكونُ ذا عائدةٍ على حياتِك الخاصّة. وإنّي لأرى في الحالَيْن أمرًا إدًّا؛ فأنْ يُجرى الكلامُ في الكمالِ، وأن تجرِيَ الحياةُ على نمَطِ ما جرى فيه الكلام، هذا ما أقولُ إنّه فوقَ طاقتنا؛ وقد لا أكونُ وحدي على هذا الرَّأي، بل إنَّ

(١) يبدو أن صاحب الرسالة راهب.

(٢) ان هذه الاشارة الى الشيب تُثبت ان «حياة موسى» من أعمال شيخوختِهِ الكاتب.

الكثيرينَ من العُظَماء المُغْرِقين في الفضيلةِ يعترفونَ بأنّ مثلَ هذا الأمرِ فوقَ مَنالهم. ولكي لا أظهرَ، كما قالَ صاحبُ المزمور، مُرْتعِدًا من الخوفِ حيثُ لا خوفَ، أُبيّن لكَ، بوضوحٍ أكثرَ، مَا أرمي إليه.

إنَّ الكمالَ، في جميعِ الأُمورِ الأُخرى التي تُقاسُ بمقياسِ الحواسِّ، هو كمالٌ ينحَصِرُ مفهومُهُ ضمنَ بعضِ الحُدود كالكَم المتَّصِل أو المنفصل. فكلُّ قياسٍ في الكَمْ تتبعُهُ بعضُ الحدودِ الخاصَّة؛ ومَن يَنْظُرْ إلى الذِّراع أو إلى العدَدِ عشرة يَعلَمْ تمامَ العِلم أنّ الكمالَ فيهما يقومُ بأنّهما يبتَدِئانِ عندَ حدٍّ ما، وينتهيانِ عندَ آخرَ. أمّا في موضوعِ الفضيلة فقد أَخذنا عن الرسولِ نفسِه أن ليسَ لِكَمَالِها سوى حدٍّ واحدٍ هو أن لا يكونَ له حدّ؛ فهذا الرَّجلُ الواسِعُ والثَّاقبُ العقلِ، هذا الرَّسولُ الإلهيّ، لَمْ يَتوقَّف قطُّ، في سبيلِ سَعْيِهِ إلى الفضيلة، عن الامتدادِ إلى ما هو أمَامَهُ [٣]؛ فَلم يكن عِنْده التوقّفُ عن السَّعي مَوْطِنَ أمانٍ؛ لماذا؟ لأنَّ كُلَّ خير في ذات طبيعتِهِ غيرُ مَحْدود، ولكنّه يَجِد حدًّا له في ضدِّه، وهكذا فالحياةُ في الموتِ، والنّورُ في الظُّلمة؛ وهكذا فكلّ خيرٍ يتوقّفُ عند الحقائق المُضادَّة له. فكما أنّ نهايةَ الحياةِ هي بدايةُ الموت، كذلك التوقّفُ عن السَّعي في طريق الفضيلة هو بدايةُ السَّعي في طريقِ الرَّذيلة. وهكذا فلم يكُنْ في كلامنا ضلالٌ عندما قُلنا إنّ الكمالَ في موضوعِ الفضيلة لا يمكن أن يُوضعَ له حدّ. وقد أوضَحْنا أنّ ما ينحصر ضَمنَ حدودٍ لا يكون من الفضيلة.

---

(٣) هذه الآية (فيل ٣:١٣) هي في أساس البحث كلّه. انها تعبّر عن نظريّة غريغوريوس في انّ الكمال تقدُّم متواصِل، لا توقّف فيه.

أمّا القولُ بأنَّ المشتركينَ في الحياةِ الفاضلةِ غيرُ قادرينَ على بلوغِ الكمال، فهو كلامٌ يحتاجُ إلى تفسيرٍ. إنَّ ما هو خيرٌ بالمعنى الأوَّلِ والدَّقيق، والذي الصَّلاحُ فيهِ جوهرٌ، أعني الأُلوهةَ نفسَها، يَحوزُ في ذاته كلَّ كمالٍ يمكنُ تصوُّره. وقد ثبَتَ أنّ الفضيلةَ لا يحدُّها سوى الرَّذيلة، وأن لا ضدَّ للأُلوهةِ، وكان من ذلك أنّ الطَّبيعةَ الإلهيَّةَ لا حَدَّ ولا نهايةَ لها. والذي يَتتبَّعُ الفضيلةَ الحقيقيَّةَ لا يَشتركُ في سِوى الله إذ إنّه تعالى هو نفسه الفضيلةُ الكاملة. ولَئِن كان الذين يعرفونَ الجمالَ في ذاته، يَصّبُون إلى الاشتراك فيه، على كونهِ لا حَدَّ له، فمن الضروريِّ أن تكون رغبةُ السّاعي إلى الاشتراكِ فيه مُرافِقةً له في الامتدادِ إلى ما لا نهايةَ له، وأن تكونَ من ثَمَّ خِلْوًا من راحةِ الاستقرار. وهكذا فليسَ بالإمكان بلوغُ الكمال، لأنَّ الكمالَ، كما سبقَ القول، لا ينحصرُ ضمنَ حدودٍ، وأن ليس للفضيلة سوى حَدٍّ واحدٍ هو اللاَّمَحْدودُ. فكيف الوصولُ إلى الحدّ المطلوبِ إذا لم يكن للحدِّ وجودٌ؟(٤)

وَلئِن أَظهرنا بكلامنا أنَّ ما نطلُبه يفوقُ طاقَتنا فلا يَسَوغُ لنا أن نتَغاضى عن وصيّةِ السَّيّدِ الذي قال: «كُونوا كاملين كما أَنّ أَباكم السَّماويَّ كامل». فإنّ الخيراتِ الصَّالِحةَ في ذاتها، وإن استحالَ كَسْبُها كامِلَةً، كان من الكَسْب العظيم أن لا يكونَ ذَوو النيَّة الطيّبة محرومينَ منها. فيجب إذَن إظهارُ حماسَةٍ شديدة في أَن لا يَفوتنا من

(٤) في نظر غريغوريوس ان كمال الكائن المخلوق في تقدُّمه المُستمرّ؛ وهذا يخالف الرَّأي اليوناني الذي يرى في كل حركةٍ نقصاً.

الكمال ما نستطيعُ بلوغَه، وفي أن نكتسِبَ منه كلّ ما يسَعُنا استيعابُه؛ وقد يكونُ هذا التطلُّبُ الدّائِمُ لخيرٍ أوفى هو كمال الطّبيعة البشريّة.

ويبدو لي من المستحسَن، في بحثِنا هذا، أن نَسْترشدَ الكتاب المقدَّس. فقد قال الصّوتُ الإلهيّ على لسانِ أشعيا النبيّ: «انظُروا إلى إبراهيم أبيكم وإلى ساره التي ولَدتْكُم». هذا الكلامُ موجَّهٌ كلّيًّا إلى الذين ضلُّوا طريقَ الفضيلة، حتّى إذا أَبْحرُوا بغير رُبَّانٍ في أُوقيانسِ الحياة تمكّنوا من الاهتداء إلى ميناءِ الإرادةِ الإلهيّةُ متمثّلينَ بإبراهيمَ وسارة، وكانوا في ذلك كبحّارةٍ قُذِفوا في غيرِ وجهةِ المرفأ، وأبصروا من بعيدٍ نارًا تتوقَّدُ في مكانٍ مرتفع، أو في قمّةِ جبل، فكان لهم فيها دليلٌ إلى الطريق القويم. وإذْ كانت البشريّةُ على نَوْعَين، ذَكرًا وأُنثى، وإذْ كان عليهما كليهما الاختيارُ ما بينَ الخيرِ والشرّ، قدّم لنا الكتابُ المقدّسُ نموذجًا في الفضيلة لكلِّ واحدٍ من النوعين، حتّى إذا نظر كلٌّ منهما إلى ما يوافقهُ، للرجلِ إبراهيمَ وللمرأةِ سارةَ، سارَ على نموذجهِ في طريق الفضيلة.

فحَسْبُنا إذن أن نُعيد إلى الأذهان سيرة إحدى الشخصيّاتِ الفاضلةِ الشهيرة، ونجعلها منارةَ هدايةٍ ونُبيّنَ كيف أنّه من الممكن إبلاغُ النَّفْسِ إلى ميناءِ الفضيلة الهادئ، حيث تكونُ بنجوةٍ من عواصفِ الحياة، وحيثُ لا تكون في خطر الانزلاقِ إلى مهاوي الخطيئةِ بفعل أمواجِ الأَهواءِ المُتتالية. ولم تُدوَّن سيرة هذه النُّفوسِ القدّيسة مُفصَّلةً إلاَّ لتوجّهَ حياةَ الخلَف في طريق الخير على مثال السَّلَفِ الصَّالح.

ولكن قد يقول أحدهم: إذا لم أكن كلدانيًّا كإبراهيم، الذي قيلَ عنه إنّه كان كلدانيًّا، ولا رضيعَ إحدى نساءِ مصر، على حدّ ما ورد في التاريخ عن موسى، إذا لم يكن في حياتي شيءٌ مُشترَكٌ فيما بيني وبينَ أحدٍ من الرّجال القُدامى فكيف يكونُ لي أن أُجريَ حياتي على سيرةِ أَحدهم؟ إنّي لا أرى كيفَ أَقتدي بشخصٍ يختَلفُ عنّي بعاداته تمامَ الاختلاف؟ جوابنَا على ذلك في أنّنا لا نرى الفضيلةَ والرَّذيلةَ كلدانيَّتَينِ، وأنَّ السُّكنى في مصرَ أو في بابلَ لا تُخرج أحدًا من الحياة على سنّةِ الفضيلة، ومن ناحيةٍ أُخرى لا تنحصرُ معرفةُ الصدّيقينَ لله في اليهوديَّة دون سواها، وصهيونُ التّصوُّرِ القديم ليسَتْ مسكنَ الله، إلاّ أنّه لا بُدَّ لنا من التفكيرِ الدَّقيقِ والنّظرِ الثاقب لكي نستشفَّ من وراءِ حرفِ التاريخ عن أيّ كلدانيّين وعن أيّ مصريّين يجب علينا أن نَبْتعدَ، وبعدَ نجاتنا من أيّ أسرٍ بابليّ نبلغ حياة السّعادة. فلنتّخذ إذن موسى نموذجَ حياةٍ نهتدي به في كلامنا. نبدأُ بنبذةٍ من حياتهِ كما عرفناها من الكتابِ المقدّس، ثمّ نستخرجُ المعنى الروحيّ الذي يُناسِبُ التاريخ، سعيًا وراءَ خطّةِ حياة نعرف منها ما هي الحياةُ الكاملةُ بالنسبة إلى البشَر.

القسم الأول

تاريخ موسى

قيلَ إنّ موسى وُلِد في عهدٍ حظَرت فيه شريعةُ الطّاغيةِ الإبقاءَ على الذُّكران من المواليد، وكان حُسْنُهُ يُنبئُ ما سيُجري عليه الزّمان من نعمة؛ فعندما شاهدَهُ أبواه بهذا الجمال منذُ طفولتهِ قرَّرا أن لا يَقْضِيا عليه. وعندما اشتدَّ تهديدُ الطّاغية لم يَرْمياهُ في النّيلِ على ما هو مألوفٌ، بل جعلاهُ في سفَطٍ طُلِيت جوانبُه بالزِّفْتِ والحُمَر، وألقياهُ في النّهر (هذا ما رواه في شأنه من عُنُوا عنايةً دقيقةً بتاريخه)؛ فدُفع السَّفَط بقوّةٍ إلهيّةٍ إلى رمل الشاطئ مَع حركةِ المياهِ التي ساقته إلى هذا المكان. وحدث أنَّ ابنةَ الملك خرجت إلى المرجِ المُنتشرِ في ناحية الشاطئ التي آل إليها السَّفَط، فكانت لها المفاجأةُ عندما سَمِعت بكاءَ طفلٍ في السَّفَط. وما إن رأتهُ الملكةُ حتى أُخذتْ بما بدا عليهِ من جمال، واتّخذته لها ابنًا بالتَّبنّي. ولكنّه تمنّع بطبيعته أن يَغْتذي بحليبٍ غريب، وبِمَسْعى أحد أقربائه تمكَّن من الاغتذاء بحليب أُمّهِ.

عندما تجاوزَ طَوْرَ الحداثة، وقد تلقّى في تنشئتهِ الملكيّةِ تنشئةً مدنيّة، لم يأبَه لما يُعَدُّ مجدًا عندَ الوثنيّين، ولم يرضَ البقاءَ على عَدِّ من

تبنَّته أُمًّا، وهي ليست في الحقيقةِ كذلك، بل عاد إلى أُمّهِ بالطّبيعة، وٱلتحقَ بأبناءِ جلدته. ووقع شجارٌ بين مصريٍّ وعبرانيٍّ فانتصر موسى للقريب وقتل الغريب؛ ثم حدث أن تضاربَ عبرانيّان، فحاول أن يَفُضّ ما بينهما من نزاع، مُبيّنًا أنه من الأصلح، وهما أخوان، أن يُترَك في نزاعهما الحكمُ للطَّبيعة لا لسورة الغضَب.

وعندما نهرَه المُعتدِي جعل من هذا الزَّجْرِ بابًا لفلسفةٍ عُليا، فتخلَّى عن مُخَالطةِ الجمهورِ، وٱنصرف بعد ذلك إلى العزلةِ في خدمةِ رجلٍ غريب، حاذقٍ في اكتشافِ المواهب، ومتمرّسٍ بالحكم على أَخلاق البشرِ وحَياتهم، وقد كفَتْهُ حادثةٌ واحدة (أعني مقاومة الرّعاة) لكي يكتشفَ فضيلةَ الشابّ، الذي أثبتَ أنّه لم يَقُمْ بالدِّفاع عن الحقّ لِصالحهِ، بل كانَ يرى أنَّ الحقَّ جديرٌ بأن يُحَبَّ لذاتهِ، وأنّه لهذا انتقمَ من الرُّعاةِ الذين لم يُسِيئوا إليه؛ وإذ أدركَ الرجلُ الغريبُ ما للشابِّ من قيمة وأنَّ فضيلته، وإن ظاهِرَ الفقرِ، تفوقُ الثَّروات الكبيرة، زوَّجَهُ بابنتهِ، وأتاح له ان يعيشَ كما يشاءُ، فعاش عيشةَ عزلةٍ وانفرادٍ، بعيدًا عن اضطراب المُدن، يرعى الغنمَ في وحشةِ القفر.

ويروي التاريخُ انه بعدَ أن قضى بعضَ الوقتِ في هذا النوعِ من العيش تجلَّى لهُ الله على وَجهٍ عجيبٍ، ففي مُنْتَصف النهار سطعَ أمامَ عينيهِ نورٌ أشدُّ لمعانًا من نورِ الشَّمس، فنالَهُ من ذلك المشهدِ الغريبِ عجَبٌ شديدٌ، ورفع عينَيْهِ نحو الجبلِ، فرأَى عُلَّيقةً يَنْبعِثُ منها النُّورُ وكَأَنَّه لَهبُ نارٍ، وأغصانُها على حَالِها من النضارةِ وكأنّها مُندَّاةٌ،

ففَاه في نفسهِ بهذه الكلمات: لأَمضِ وأرَ هذا المشهدَ العظيم. وما إن قالَ هذا القولَ حتّى راحت مُعجزةُ العلّيقةِ لا تتوقّفُ عند مخاطبةِ عينَيْهِ، بل كان الأعجبُ من كل شيءٍ أنَّ أشعَّة النور راحت تلتمعُ أيضاً في أُذُنيهِ. وهكذا كان رَوْنقُ النُّور يتوزّعُ على الحاسَّتَيْنِ، مُنيرًا العينَيْنِ ببريقِ الأشِعَّة، ومنيرًا الأُذُنينِ بالتَّعاليمِ التي لا يشوبُها فسادٌ. صَوْتُ النُّورِ منعَ موسى من الدنوّ من الجبلِ، وهو المُثْقَل بنَعْلَي الموت؛ ولكنَّهُ عندما انتزع رجلَيْهِ من النَّعليْنِ استطاع ان يَمسَّ الأَرضَ التي كانت في مركزِ النّور.

بعدَ ذلك – وأنا لا أُريدُ ان أُشدِّد على القضايا التاريخيّةِ حتى أتقيّدَ بما أنا في صدَدِهِ – تقَوّى موسى بمشهدِ الظُّهور الإلهيّ، وتلقَّى الأمرَ بأن يُحرِّرَ شعبه من عبوديّةِ المصريّين. ولكي يتوثّقَ ملءَ التوثّقِ في السُّلطان الذي أتاهُ من الله راح يختبرُهُ، بأمرٍ منه تعالى، في ما هو بمُتَناوَلِهِ. وكان الاختبارُ كما يلي: عصاً تُلْقيها يدهُ فتَحْيا وتصيرُ حيوانًا – والحيوانُ كان ثُعبانًا – وعندما أَمسَكها بيدهِ عادت إلى ما كانَتْ عليه؛ وإلى ذلك فعندما أخرجَ يدَهُ من جَيْبهِ كانت جلدتُها بيضاءَ كالثّلج، وعندما ردَّها في جَيْبهِ عادت إلى ظاهرِ طبيعتِها.

فنزل إلى مصر، آخذًا معه امرأتَهُ، وهي من عِتْرةٍ غريبة، والولدَيْنِ اللذينِ وُلِدا لهُ منها. والتاريخُ يذكر أنَّه لَقِي ملاكًا هدَّده بالقَتْلِ، فهدَّأتِ امرأتهُ الملاكَ بدمِ ختانِ ابنها. ثمّ لَقِي هارونَ الذي قادَهُ الله نفسُهُ إليه. وعندئذٍ دَعَا كلاهما الشعبَ إلى اجتماعٍ عامّ وحَثّاهُ على خلعِ نيرِ العبوديّةِ التي كانت تُرهقهم بالأعمال الشاقّة. وقد جرى

حديثٌ في هذا الموضوعِ مع الطّاغية نفسِهِ، فلم يزِدْهُ ذلك إلا سُخطاً على مُديري الأَعْمالِ وعلى الإسرائيليّينَ، وأَمرَ فثقِّلَ عملُ اللَّبِنِ وجُعلِ أكثرَ مشقَّةً بأن أُضِيف فيه على سُخرةِ الطّين سُخْرة التِّبْن.

ثـمّ حاول فرعون – وهذا اسـمُ طاغـيةِ المصريّين – أن يُـقابِـل المعجزاتِ التي أعطاهما الله أن يجترحاها بخُزعبلاتِ السَّحَرة. فلمَّا عادَ موسى، أمامَ عيون المصريّين، ان يُحوّلَ عصاهُ إلى ثعبانٍ، بدا أن السِّحْرَ تمكَّن من إنجازِ المُعجزةِ نفسها بعِصيِّ السَّحَرَة؛ ولكن النتيجة فضحَتْ خِداعَهُم، إذْ إن الثّعبان الذي تحوَّلت إليه عصا موسى افترس عِصِيَّ السَّحرة، أي الثّعابين؛ وظهر هكذا أَن عصِيَّ السَّحَرة لم يكُنْ لها من القوّةِ ما يجعلها تُدافِعُ عن نفسها وتحيا، وكان تمويـهُ الـسَّـحَرة وحدَهُ هو الذي يُـغـلِّـب خِداعَـهُـم عـلى عـيونِ مَخْدوعِيهم.

وإذ رأى موسى أن الـشَّـعـبَ كـلّه مشترك في مقاصدِ رئيسـهِ الشريّرة، ضرَب الأُمّةَ المصريّة بقَرْحَةٍ عامّة، غيرَ مُستثنٍ أحدًا من تجربةِ الآلام. ولكي تُسْهِمَ معه العناصرُ الكونيّةُ نفسُها، في الضربةِ الواقعةِ بالمصريّين، راحت تتحرَّكُ وكأنَّ الأرضَ، والنارَ، والهواءَ، والماءَ، جيشٌ خاضِعٌ لأَمْرِهِ، وقد غيّرت قوّاتِـهَا الغريزيّـةَ وفاقًا لاستعداداتِ البشر. وهكذا فالحادثُ الواحدُ، عاملاً في الوقتِ الواحدِ والمكانِ الواحد، كان للمذنِب عقابًا، وكان للبريءِ من الشرّ خلاصاً.

وهكذا فكلُّ ما كان في مصرَ من ماءٍ تحوَّلَ بأمرِ موسى إلى دم، بحيثُ إنَّ الاسماكَ ماتت لِتَخثُّرِ الماءِ؛ إلاَّ أَنَّ العبرانيّينَ عندما كانوا

يشربُونَ كان الدمُ يعودُ ماءً؛ وقد اغتنمَ السَّحَرةُ الفرصةَ للتَّضليل بظاهرِ الدَّم الذي وُجد عِنْدَ العِبْرانيّين.

كذلك كانَ الأمرُ في ما هو من شَأنِ الضّفادعِ التي أخذت تجتاحُ مصرَ بغزارةٍ، ولم يكن من المُمكنِ أن يُعزَى مثلُ هذا التَّكاثرِ عندها إلى عملِ الطّبيعة، ولكنّه الأمر الذي وُجّه إلى جماعة الضّغادع، فجعلها إذ ذاك تظهرُ هذا الظُّهورَ، فاجتاحت هذه الحيوانات الهدامة مصر بأسرها وانتشرت في المنازل، ولكن هذا الويلَ لم يُلحق أذًى بالعبرانيّينَ.

كذلك الجوُّ تمنّعَ عن أَن يتركَ للمصريّين مجالاً للفصلِ بينَ النهار والليل، فأقاموا في ظلمةٍ مُتواصِلةٍ؛ أمّا العبرانيّونَ فلم يخرج لديهم شيءٌ عن مألوفِ العادة. وهكذا كانَ بالنسبةِ إلى ما تَبقّى: البرَد، والنَّار، والحشرات، والبُثور، وغمامة الجَراد. كلُّ شيءٍ من هذه الاشياءِ كان يعمل في المصريّينَ بحسب غريزتهِ وطبيعتِه، وكان العبرانيّون يعرفونَ ماذا يحدثُ لجيرانهم بما يُنقَلُ إليهم من أخبارٍ وأحاديثَ، ولكنّ شيئًا من ذلك كله لم يَنَلْهُم. ثُمَّ جاءَ ضَربُ الأَبكارِ الذي بيّنَ الفرقَ بين المصريّينَ والعبرانيّين، أولئك كانوا يُعْوِلونَ لخسارةِ أعزِّ مَن لَدَيْهم، وهؤلاءِ كانوا على حالهم من الطُّمأنينةِ والصّفاء، وكان خلاصُهم بلَطْخةِ الدّم، إذْ لُطخت مِنهُ العَتَبةُ العُليا وعضادَتَا البابِ من كل منزل.

وبعد ذلك، فيما كان المصريّون في غمرة نَكْبتهم بأبكارهم يُوَلْوِلون لما حلّ بهم، كلُّ واحدٍ بمفرده، وجميعُهم معًا، تأهَّبَ موسى للخروج

بالإسرائيليّينَ بَعْدَ إذْ أشار إليهم ان يحملوا معهم أموالَ المصريّين على أنها عَاريَّةٌ. ويروي التاريخُ أنه بعد ثلاثةِ أيام لخروجهم من مصرَ، أخذ المصريُّ يندمُ على خروجِ إسرائيلَ من خِدّمتِه، فجنَّد قومَهُ وتعقّبَ الشعبَ بخَيْلِه. وعندما رأى الشعبُ امتدادَ هذهِ الأسلحةِ وهذهِ الخيولِ، ولم يَكُنْ على خبرةٍ بالحرب، وعلى إيلافٍ لمثل هذه المشاهِدِ، ألمّ به الخوف فجأةً ونهضَ في وجهِ موسى. والتاريخُ يَرْوي لموسى هذا الحادث العجيب إذ ضاعفَ نشاطه وراحَ، من جهةٍ، بالصوتِ والكلمة، ينهضُ بالإسرائيليّين ويدعُوهُمْ إلى الاعتصامِ بالأمل، كما راحَ، من جهةٍ أُخرى، وفي دخيلةِ نفسه، يرفع إلى الله توسُّلاتهِ من أجلِ من كانوا في الضِّيقةِ، وكان يَعْلَمُ، بتدبيرٍ من العليّ، كيفَ ينجو من الخطَر. ويقولُ التاريخُ إنَّ اللّهَ نفسَه كان يُصغي لِصُراخِهِ الصَّامِتِ.

كانت غمامَةٌ تقودُ الشعبَ بقوّةٍ إلهيّةٍ، ولم تكن من طبيعةٍ عادِيَّة (فانها لم تكن مُكوَّنةً من أبخرةٍ يبعَثُها تكثُّفُ الهواءِ بما يُخالطه من مَوادَّ رَطْبةٍ وبما يُجري فيه ضغطُ الرّيح، لكنّها كانت شيئًا أَعظمَ من ذلك وفوق التّصوُّرِ البشريّ). وكان لهذهِ الغَمامة، على حدِّ شهادةِ الكتابة المقدسة، ميزةٌ عجيبةٌ بحيث إنها، إذا اشتدَّت حرارةُ أَشعّةِ الشمسِ، أصبحت للشَّعبِ حجابًا واقيًا، فتُظلِّل مَن كانوا تَحْتَها، وتُبلّل لظى الهواءِ برَذَاذٍ من النَّدى، وإذا كان الليلُ أصبحت، من المساءِ إلى الصَّباحِ، نارًا مُشتعِلَةً تقودُ الإسرائيليّينَ بِوَهِيجها كما لو كانت مِشْعلاً من المشَاعل.

وكانَ موسى نفسُه ينظرُ إليها، وقد علَّم الشَّعبَ أن يتَتبَّعَ الظّاهِرةَ، وهكذا انتهَوا إلى البحر الاحمرِ تَقُودهمُ الغمامةُ إلى الممرّ، وكان المصريّونَ يُطوّقونَ الشعبَ من الوراءِ مع جميعِ قوّاتهم، وإذْ أصبحَ الحصارُ مضروبًا على العِبْرانِيّين بين المصريّينَ والبحرِ لم يجدوا لهم أيَّ مفرٍّ من أعدائِهم الرَّهيبينَ، عندَ ذلك أقدمَ موسى على القيامِ بأروعِ أعمالِهِ كلِّها، تحضُّه عليهِ القَدرةُ الإلهيّة، إذ تقدَّمَ إلى الشاطئ وضربَ البحرَ بعصاه؛ وكما أنّ الكَسْرَ إذا نالَ الزُّجاج في أحدِ طرفَيْهِ يمتدُّ فيه إلى طرَفِهِ الثاني، هكذا جرى للبحرِ عندمَا انشقّ في أحدِ طرفَيْهِ، بفعل ضربةِ العصا، امتدّ انفصالُ المياهِ إلى الشاطئ الآخر. وإذ نَزل موسى إلى العُمْقِ، حيثُ انشقَّ البحرُ، وجدَ نفسَهُ مع جميعِ الشعب، في قعرِ البحر، بأجسادٍ جافَّةٍ وتحتَ شمسٍ مُشرقةٍ؛ وقد اجتازُوا على اليَبَس أعماقَ البحرِ، ولم يخشَوا الجدرانَ المائيّةَ التي نهضَت فجأةً، إذ تجمَّد البحرُ مِن هُنا ومن هُنا كُسورٍ.

ولمَّا دخلَ فرعونُ مع المصريّين إلى البحر عن الطَّريق التي خُطّت حديثًا في المياه، انضمّت تلك المياهُ بعضُها إلى بعض، وارتدَّ البحرُ على نفسهِ وعاد إلى ما كانَ عليهِ، ناشرًا للعيانِ سويَّ صفحةِ مياههِ؛ وكان الاسرائيليّونَ على الشاطئ المُقابِل يُخلدونَ إلى الراحةِ من الجهدِ العظيمِ الذي بذلُوهُ في اجتيازِهم البحر، وقد أنشدوا إذ ذاك نشيدَ الظَّفَرِ لله الذي أقام لهم نُصبًا غيرَ دمويّ، بعدَ القضاءِ، في المياهِ، على المصريّين بجميع عَتادِهم، وخَيْلهم، وأسْلحتهم، ومَرْكباتهم.

بعد ذلك استنأنف موسى تقدُّمَهُ، ولكنَّه، بعد مَسيرةِ ثلاثة أيَّامٍ لم يجد فيها ماءً، وقعَ في حيرةٍ لِكَوْنه لا يملكُ ما يُسكِّن به عطشَ جيْشِهِ. لقد وجَدُوا بركة ماءٍ فعَسْكَروا إلى جانِبها، ولكنَّ الماء ماءُ بحر، وهو أشدُّ مرارةً من ماءِ البحر. فكانوا جالسينَ قربَ الماءِ والعطَشُ يَنْهشُهم. فما كان من موسى الاّ أنِ ٱلتَقطَ، باشارةٍ من الله، قطعةَ خشبٍ كانَت هناك، وضربَ بها الماءَ، فصارَ للحالِ صَالحًا للشُّربِ، وذلك أن الخَشبَ حوَّلَ بقوّتهِ الخاصّةِ، طبيعةَ الماءِ من مرَّةٍ إلى حُلوةٍ.

عند ذلك استَأْنفتِ الغمامةُ سيرَها إلى الأَمام، لأَنَّ الاسرائيليّينَ عادوا إلى السَّير متتبّعينَ حركتها. وهكذا فعلوا دائمًا فتوقّفُوا للاستراحةِ كلّما أشارَ إلى ذلك توقُّفُ الغمامةِ، واستأنفوا السّيرَ كلما عادت الغمامةُ إلى التقدّم أَمامَهم. وإذ ٱتّبعوا هذا الدليل وصلوا إلى مكانٍ يرويهِ ماءٌ صالحٌ للشرب، يَنصبُّ غزيرًا من اثني عشَرَ ينبوعًا، وتظلِّلهُ غابةٌ صغيرةٌ من التّخيل مؤلّفةٌ من سبعين نخلةً، وهي، على قلّةِ عدد أشجارِها، كانت ذاتُ أثرٍ شديد في عيونِ الناظرينَ إليها بسبب ما كانت عليه تلك الاشجارُ من الجمالِ والعلوّ الفريدين، ولكن الغمامةَ التي كانت تقودُهم لم تَدَعْهُم يتبَاطأونَ في ذلك المكانِ، فقادَتْهم إلى مكانٍ آخرَ رمليٍّ وصحراويٍّ يتوقَّد لظىً وجَفافًا، ويخلو من قطرة الماء التي تروي، فعاودَ العطشُ الشَّعبَ، ولكنَّ موسى ضربَ بعصاه صخرةً جاثِمةً على مرتَفعٍ فتفجّرَ منها ماءٌ صالحٌ للشربُ وعذب، وكافٍ لسدِّ حاجاتِ الجيشِ كلّهِ.

وهنالك نفدَ الزَّادُ الذي حملُوهُ من مِصرَ واشتدَّ بهم الجوعُ، فكانتِ المعجزةُ التي تفوقُ التصوُّر؛ فليستِ الأَرضُ هي التي، على مألوفِ عادتِها، تُقدِّم الغذاء، ولكنَّ الغذاء تساقطَ من السماء كتساقُطِ الندى، وهكذا كان سقيطُ النَّدى ينزلُ عليهم عندَ الغرُوبِ فيتحوّلُ إلى غذاءٍ للذين يلتقِطُونه. ولم يكنِ السَّقيطُ سَائِلاً، كما هي الحالُ في النَّدى، ولكنّ قطراتِ الماءِ كانت كدقيقٍ مكتّلٍ كالجليدِ، ومستديرةً كبزرِ الكُزْبُرةِ، وطعمُها بعذوبةِ العسَلِ.

إلى هذه المُعجزةِ أُضيفت أُخرى، فجميعهم كانوا يخرجونَ لِلاَلتقاط، وكانوا بطبيعة الحالِ مُختلِفي الأَعمارِ والقُوى، ومع ذلك فلم يأخُذ هؤلاءِ أكثرَ أو أقلَّ من أولئك بحسب اختلاف قواهم، ولكنّ الغلّةَ كانت مَقيسةً على الحاجة بحيثُ إن الأَقوى لم يحصُل على أكثرَ من حاجته، والأَضعفَ لم يُبْخَسْ في ما يرجعُ له من نصيب. والتاريخُ يورد أيضاً أمرًا عجيبًا: كانَ كلُّ واحدٍ يلتقطُ ما يحتاج إليه في يومِهِ ولا يُبقي شيئًا إلى ما بَعدُ، وإذا قادَ التقتيرُ أحدًا إلى أن يُبقي إلى ما بعدُ جزءًا من نصيبه اليوميّ، أصبحَ ذلك الجزءُ غيرَ صالح للأكل، ودبَّ فيه الدُّود.

بقي أَمرٌ أخيرٌ عجيب في قصّةِ هذا الطَّعام. كان في أيّامِ الأسبوع يومُ عُطلةٍ فُرِز للتَّقوى والعِبادة. ففي اليومِ السّابق لهذا اليوم، والكمّيةُ السّأقِطَةُ هي هي، والجهدُ الذي كان يَبْذلُه الملتقطونَ هو هو، فما كان يُجمَع كان ضعفَي الوزنِ العاديّ، وذلك لكي لا يكونَ لهم مُبّرِرٌ في تجاوزِ ناموسِ الرَّاحةِ. والقدرةُ الالهيّةُ أكثرُ ظهورًا في أنَّ ما كان يُخزَنُ

في الأَيَّام الأُخرى كان يفسُدُ، وما كان يُخزَن ليومِ السبتِ (وهو اسمُ يومِ العطلة) كان في مَنأًى عن الفساد، وكان يقلُّ نضارةً عمَّا كان يُلتقَطُ.

بعد ذلك نشبت حربٌ بينَهُم وبين أُمّةٍ غريبة؛ والكلامُ المقدس يدعو الذين تجمَّعوا لمناهضتهم عماليق؛ وللمرّةِ الأولى يتسلّحُ الإسرائيليّون للقِتَال، لا الجيشُ كلُّه، لأنَّهم لم ينهضوا جميعُهم للقتال، ولكنَّ الذين دُعوا للحرب كانوا جماعةً مختارةً بعنايةٍ؛ وقد ابتكر موسى في هذه الحرب خطّةً حربيَّةً جديدة. فيشوعُ الذي قاد الشعبَ بعد موسى، هو الذي حملَ بجيشه على عماليق، وموسى ظلَّ خارجَ المعركة، ووقفَ على يَفاعٍ، وكأنَّه في مركزِ مُراقبة، وتطلَّع إلى السماءِ، وإلى جانِبَيْه اثنانِ من خاصّتهِ. وإليكَ المعجزةَ التي يروي التاريخُ انها حدثَتْ إذ ذاك. كان إذا رفعَ موسى يدَيْهِ إلى السماء يتغلّبُ قومُهُ على الأعداء، وإذا حطَّهما تراجعَ الجيشُ ودَحَرهُ الهجومُ المُعادي. وقد تنبّهَ لذلك الرَّجلانِ اللذانِ كانا إلى جانبَيْهِ، فكانا، إذا أبصرَا يدَي موسى تثقلانِ ويصعبُ رفعُهما، لسببٍ ما خفيٍّ، يُقيمانِ تحتها ويُسْندانها؛ وإذْ كانا على جانبٍ كبيرٍ من الضعفِ ولم يستطيعا إبقاءَ موسى واقفًا ساعَدَاهُ على الجلوس على حجرٍ، وهكذا ظلَّ رافعًا يديه إلى السماء، وذلَّ الغرباءُ لسلطانِ الإسرائيليّين.

وبما أن الغمامة التي كانت تقودُ الشَّعب في رحلته ثبتت في مكانِها، لم يعد في استطاعةِ ذلك الشعبِ أن يغادرَ مكانَهُ، إذْ لم يَعُدْ له دليلٌ في تحرُّكهِ؛ وأيًّا كانت الحال فبغير جهدٍ منهم كان رِزقهم

يأتيهم وفيرًا، وكان الجوّ يُمطِرهم من فوقُ خبزًا خَبيزًا، وكانت الصخرةُ من تحتُ تقدّمُ لهمُ الماءَ؛ وكانت الغمامةُ تُلطِّفُ تقلباتِ الأَجواءِ، فتكونُ في النهارِ حجابًا واقيًا من القَيْظ، وفي الليل منارًا يُنير بأشعّةٍ من نار، ويَطْرُد مواكب الظلام؛ وهكذا لم تكنِ الإقامةُ في البريّة إقامةَ مشقّةٍ، في المخيَّم القائم على حضيضِ الجبَل.

في ذلك الحين أصبحَ لهم موسى الدَّليلَ في تعلُّمٍ أشدَّ إيغالاً في البُعد السرّيّ، وكانت القدرةُ الالهيّةُ نفسها، بمعجزاتٍ تفوقُ الكلامَ، تُعلِّم الشعبَ ودليلَهُ؛ وقد جرى هذا التعلُّم السرّيُّ على الوجهِ التالي. دُعِي الشَّعبُ أوّلاً إلى تجنُّبِ جميع انواعِ الدَّنسِ الجسدي والرُّوحيّ، وإلى التطهُّرِ بالاغتسالِ بالماء؛ كما دُعي بنوعٍ خاص إلى أن لا يَقْرَبوا امرأةً في عددٍ محدودٍ من الأيّام؛ وهكذا، وقد تخلَّصوا من كل ميلٍ حسّيّ وجسدي، يَقتربونَ من الجبل، وهم أطهارٌ، لكي يتلقّنوا مبادئَ العِلمِ الالهيّ. وكان اسمُ الجبلِ سيناء؛ وكان لا يُـبيح التوقُّلَ فيه، والحالةُ هذه، إلاّ للكائنات العاقلةِ وحدها، وفيها للبشرِ وحدَهم، وفي هؤلاء أيضاً للخالين من كلِّ دنس. وكانت الحِراسةُ مُشَدَّدةً لكي لا يصعدَ إلى الجبلِ كائنٌ غيرُ عاقلٍ، وإن جرى الأمرُ رجَمَ الشعبُ كلَّ كائنٍ غيرِ عاقلٍ يظهرُ على مقربةٍ من الجبل.

وبعد ذلك أخذت شفافيّةُ الجوِّ التي كانَتْ نيّرة، تُدغشُ وتدخلُ في الظّلام، حتّى غاب الجبلُ عن الأنظار يَلُفّهُ الغمامُ من كل جانبٍ. وكان في الغمامِ أَتونُ نارٍ يجعل المشهدَ مُخيفًا؛ وكانت نارُ الأتّونِ تشمل

الجبلَ كلّهُ بحيثُ إنَّ كلَّ ما كانَ في هذه الدائرةِ الناريّة المتحرّكةِ كان عابقًا بالدُّخان. وكان موسى دليلَ الشّعبِ في التقدّم إلى الجبل؛ ولم يكن أمامَ المشهدِ خاليًا من الخوفِ، فَنفْسُه كانت تضطرمُ خَوْفًا، وجسدهُ كان يَرْتعدُ ذُعرًا، ولم يكن الإسرائيليّونَ غافلينَ عن ذلك، وهو نفسه كان يعترفُ بذعرهِ ممّا يرى، وبأن جسدَهُ لا يخلو من رِعْدة.

لم يَقفِ المشهدُ عندَ بعثِ الذُّعر في النفس بدخولهِ من العينَيْن، ولكنَّه كان يُشيعُ الخوفَ أيضاً عن طريق الأُذُنَيْن؛ فكانَ ينتشرُ في تلك النَّاحِيةِ كلّها دويُّ صوتٍ شديد، يأتي من العَلاء وينشرُ فيها الذُّعرَ. وكان مُذْ يُباشِرَ الأُذنَ يعملُ فيها بقسوةٍ لا تُحتمل: كان أَشبهَ بصوتِ البُوقِ، ولكنّه كان يفوقُ بشِدَّته كلَّ صوتٍ من هذا النوع؛ وكان كُلَّما اقترب اشتدَّ تأثيرهُ لأَنه كان يزدادُ هولاً وإرهابًا. كان هذا الصَّوتُ تلفُّظاً وتعبيرًا، وكان الهواءُ، بقدرة الله، ينطقُ بالكلمةِ بدونِ أعضاءٍ صَوْتيَّة. ولم يُفَهْ بتلك الكلمةِ جُزافًا، ولكن لإعلانِ الأوامرِ الالهيّة. وبازديادِ الصوت كانت تزدادُ حِدّتُه، وكان البوقُ يبذلُ كلَّ ما في وسعه من الجهارة، وكان الدويُّ اللاحقُ يفوق أبدًا الدويَّ السَّابق.

ولم يكن باستطاعةِ الشَّعب ان يتحمَّلَ ما يُرى وما يُسمع؛ ولهذا توجّهوا إلى موسى بلسانٍ واحدٍ وسألوهُ أن يكونَ وسيط الناموسِ، مُعلنينَ أنّ كلَّ ما يَأمرهُم به بحسب ما يُلقَى إليه من العَلاء إنّما هو أمرٌ من الله. وفيما نزلَ الجميعُ إلى حضيضِ الجبل لَبِث موسى وحدَهُ

مُظهرًا في ذاتَه عكسَ ما كان يُنتظَرُ منه. فني حينِ تزدادُ جرأةُ غيره على مُواجَهةِ الخطر إذا كانَ له في ذلك شريكٌ، وُجدَ هو أشدَّ ثقةً بنفسهِ عندما انفصلَ عن مُرافقَيْهِ، مُظهرًا بذلك ان الخوفَ الذي نالَهُ في بدءِ الأمر، لم يكن لينالَهُ من أَجل ذاته، بل شفقةً على الذين حلَّ بهم. وهكذا عندما خلاَ لِنفسهِ، وتخلّصَ من جُبن الجمهورِ الذي كان يَبْهَظهُ، تصدَّى للغمامةِ نفسها، ونفَذَ إلى الحقائقِ غيرِ المرئيّة متواريًا هو نفسهُ عن الأنظار. وبعد دُخولِهِ إلى هيكلِ السّرِّ الالهيّ، اتّصل فيه باللامرئيّ، وأصبحَ غيرَ مَرْئيٍّ، يُعلِّم بذلك، على ما أرى، أنَّ على من أرادَ الاقترابَ إلى الله أن يتركَ كلَّ ما هو مَرْئيّ، حتى إذا ارتفعَ بنفسه نحوَ غيرِ المُرْئيّ وغير المُدْرَك، وكأنه على قمّةِ جبل، يُدرِك أنَّ ما هو إلهيّ يُقيمُ حيثُ يتوقّفُ إدراكُ العقلِ.

هنالك تَلقّى الوصايا الإلهيّة. انها كانت تعاليمَ في شأنِ الفضيلة، وكان أوّلُها تقوى الله والطَّريقة الحقيقيّة للتفكير في الطبيعةِ الإلهيّة على أنها تفوقُ كلَّ تَفَقُّهٍ وكلَّ تمثيلٍ، لأنّها تختلف عن كل ما يُمكنُ إدراكه. فقد أُمِرَ ألاَّ يُعيرَ اهتمامَهُ لأيِّ شيءٍ ممّا ينالُه الإدراك في موضوع الله، وألاَّ يُمثِّل الطبيعةَ التي تفوقُ الكونَ بأيِّ شيءٍ يُدرَك بالتصوُّر، بل يؤمنُ بوجودهِ، ويَدَع ما يتعلّق بالصّفة والكمّية والكَيْفِ والمصدرِ على أنه غيرُ ممكنِ المنَال. وقد أضاف الكتابُ المقدس إلى ذلك كل ما هو من السُّلوكِ الأخلاقيّ، مقدّمًا التّعليمَ بشرائعَ عامّةٍ وخاصّة؛ فعامَّةٌ الشريعةُ التي تشجبُ كلَّ ظُلمٍ وتأمرُ بمحبّةِ القريب؛ فيكون من ذلك الامتناعُ عن إلحاقِ أذًى بالقريب. ومن الشرائعِ

الخاصّةِ يمكننا ان نذكرَ الاحترامَ الواجبَ للوالدَيْن؛ وهنا يجب إدخالُ سلسلةِ الأخطاءِ المُستنكرَة.

وبعدما يتطهَّرُ الروحُ بهذه الشَّرائعِ يدخلُ في مرحلةٍ من التفقُّه أشدَّ كمالاً، إذ تُريه القُدرةُ الالهيّةُ مَشهدَ سُرادقٍ، وما هذا السُّرادقُ إلاَّ هيكلٌ يزدانُ بأُمورٍ مختلفةٍ جدًّا: مداخلُ، وأعمدة، وأَسْتَار، ومائدةٌ، ومَنائرِ، ومذبحُ بخورٍ، ومذبَحُ مُحْرَقةٍ وتَكْفيرٍ، هذا إلى ما في داخلِ قدسِ الأقداسِ ممّا لا يحلُّ لأحدٍ الوصولُ إليه. ولكي لا يَعْزُبَ جمالُ هذه الأشياءِ ونظامُها عن الذّاكرة، ولكي تتّضحَ المُعْجِزَة لِمَن هم في الأَسْفلِ، أُشِيرَ إلى مُوسى ان لا يكتفيَ بَرِسْمها، بل أن يُقلِّدَ هذا المشهدَ غيرَ الماديّ ببناءٍ أرضيّ مُستعمِلاً لذلك أثمنَ وأجملَ ما على الأَرض من موادَّ. من تلك الموادِّ الذّهَبُ يُغطّي الأَعْمِدة؛ والفِضّةُ تُزيّنُ تيجانَها وقَواعِدَها، وذلك، على ما أرى، لكي يُبرزَ اختلافُ اللَّونِ على الطَّرفَيْنِ أَلَقَ الذَّهب؛ وكذلك أيضاً النُّحاس، عُدَّ مُفيدًا في بعضِ الأمكنةِ فجُعِلَ تاجًا وقاعِدةً لأعمدةِ الفِضّة .

وكانتِ الأَستارُ والسُّجوفُ، والغطَاء الخارجيُّ للخِباء، والحجابُ الممدودُ فوقَ الأعمدة، آيةً في النَّسج، وكان كلُّ واحدٍ من المادّةِ المُوافِقة. وكان صِبْغُ الأَنسِجة لهذه الأشياءِ البَنفسجيَّ، والأُرجوانيَّ، والقِرمزيَّ الفاقع، والظاهرُ الطبيعيُّ وغيرُ المصنَّعِ للخام الكتَّانيّ؛ ولِتلك الأشياءِ الأُخرى استُعمِلَ الشَّعرُ نسيجًا؛ وفي بعضِ الأماكنِ اتُّخذتِ الجلودُ المصبوغةُ بالصِّبغِ الأحمر لِتزيينِ البِناء.

وكان على موسى، عند نُزولهِ من الجبل، ان يصنع هذه الأشياءَ على المثالِ الذي أُرِيَهُ في الجبلِ، منتدبًا لذلك صَنّاعينَ حاذِقين. والآنَ وقد دخل هذا الهيكلَ الذي لم تُقِمهُ يَدُ بشَرٍ، يتلقَّى إرشاداتٍ في شأنِ اللباس الذي يجبُ على الكاهنِ ان يتزيّا به عندَ دخوله إلى الهيكل، وقد أعطاهُ الكتاب إرشاداتٍ في شأنِ كل قطعةٍ من اللباسِ الداخليّ والخارجيّ. وتبدأ قطَعُ اللباسِ بما هو مرئيّ منها لا بما هو خفِيّ. فهنالِك الكَتِفانِ مصبوغتَينِ بألوانٍ مختلفةٍ على نحو ما صُبغ الحجاب، يُضاف إلى ذلك خيطٌ من الذّهب؛ وإبزيمانِ يَصِلان الكَتِفَيْنِ من كل جهةٍ وَهُمَا من ذهبٍ، وَعلى كلّ واحدٍ منها حجرٌ من زُمرُّدٍ، وكان جمالُ هذينِ الحجرينِ يَصْدرُ عن بريقهما الطبيعيّ وعن الأَشعّةِ الخضراءِ التي تنبعثُ منها، وكان الفنّ يُضيف إلى ذلك نقوشًا عجيبةً، لا ذلك الفنّ الذي ينقشُ نقوشًا لصورةِ أحدِ الأصنام؛ بل كان مرجعُ جمالها إلى أسماءِ الآباء منقوشةً عليها، ستّة على كلِّ واحدٍ منها. وعلى مقدّمة الكتفَيْنِ حجارةٌ مرصَّعة وسلاسلُ مجدولةٌ ومشبوكةٌ بعضُها في بعض على شَكل وشاحٍ وعلى طريقةٍ ما من التّناوُبِ، معلّقةٌ من كل جهةٍ بإبزيمِ الحجارة، وذلك، على ما أرى، لكي يزدادَ بريقُ الضّفيرةِ بألَقِ ما تحتَها.

وهنالك تلكَ الحِلْيَةُ من ذهبٍ مُصنَّع مُعلَّقةً أمامَ الصّدرِ وعليها حجارةٌ من أنواعٍ مختلفة، بمقدارِ عدَدِ الآباء، أربعةُ أَسطرٍ من الحجارة، وعلى كلِّ سطرٍ ثلاثة أسماءٍ من الأسباطِ منقوشةً عليها. وكانت الجُبّةُ تنحدرُ تحت الكتْفيَّتيْنِ من قَفا الرأسِ إلى أسفلِ

القدمَيْنِ وعليها أهدابٌ رائعةٌ تَزيُنها؛ وكانت أذيالُها من حَوْلِها تَزْدهي بتنوُّعِ القماش وبما عليها من الزَّخارفِ الذهبيّة. وكانت هذه الزَّخارفُ جلاجلَ ورُمّاناتٍ من ذهب مُتناوبة. وهنالك تاجُ الرأس، بنفسجيَّ اللون، والصَّفيحةُ على الجبهةِ من ذهبٍ خالص، وقد نُقش عليها كلامٌ قُدسيّ. يُضافُ إلى ذلك المِنْطقةُ تَشُدُّ مكاسرَ الثّوب المتهدِّلَة، كما تَشُدُّ الأقسامَ الخفيّةَ وكل ما أُوردَ بهدفٍ رمزيٍّ في شكلِ اللباس، إشارةً إلى ما تكونُ عليه فضيلةُ الكهنوتِ.

وبعدما لَقِنَ موسى، وهو في داخلِ الغمامةِ غير المرئيّة، هذه الأمورَ وما شابَهها، التي أشارَ بها الله، وإذ أصبحَ متفوّقًا على ذاته بما اكتسبه من المعارفِ السرّيّة، برزَ من الغمامة، ونزلَ إلى شعبه لكي يُطلعَهُ على الأُمورِ العجيبة التي أُرِيَها في التجلّي الإلهي، ويُسلِّمهُ الشَّرائع، ويُقيم له الهيكل والكهنوت على المِثال الذي فُصِّل له في الجَبل. وكانَ يحملُ أيضاً بيديه اللوحَيْنِ المقدَّسينِ، اللذينِ كانا من إبداعِ الله وعطائهِ ولم يشترك في صُنعِها بَشَرٌ، فالمادّة والكتابة كانَتا من صُنعِ الله؛ والكتابةُ كانتِ الشَّريعةَ. ولكنّ الشعبَ تنكّر للنعمةِ وانحرفَ إلى عبادةِ الأصنامِ قبلَ أن يسمعَ كلامَ المُشْترع.

وهكذا إذْ طالتِ المحاورة بين مُوسى والله في ذلك اللقاءِ الالهيّ، وإذْ قضى موسى أَربعينَ نهارًا وأربعينَ ليلةً تحتَ الغمامةِ يُشارك في هذه الحياةِ الخالدة، متحرّرًا من قيودِ الطّبيعة – ففي هذه الفترةِ كلها من الزَّمنِ لم يكُنْ بحاجةٍ إلى قوتِ الجسَد – إذ ذاك انجرفَ الشعبُ، كفتًى يعزبُ عن عينَي مُربّيهِ، انجرفَ إلى الفوضى تَدْفعُه ميولٌ

جامِحَةٌ، وأحدقَ بهارون، وحملَ الكاهن على ان يكونَ قائدَهُ إلى عبادة الأصنام. وإذ صنع صنمًا من ذهب – وكان الصَّنم عجلاً – راحَ ينغمِسُ في الشرّ. وعندما رجعَ موسى إليهم حطَّمَ اللوحينِ اللذينِ أتى بها من لَدُنِ الله، عقابًا لهم على ذنوبهم إذْ رفضوا النعمة التي خصَّهم بها الله.

وبعدما غسلَ موسى الرَّجاسةَ بدمِ الشعب على يدِ بَني لاوي، وبعدما سكّن الغضبَ الالهيَّ بثورتهِ على الأئمة، وبتحطيمهِ للوثَن، عاد إلى الانعزالِ أربعين يومًا، وجدَّد اللوحَيْن: كانتِ الكتابةُ من صنع القدرة الالهيّة، أمّا المادَّةُ فكانت من صُنع يد موسى. لقد جدَّدهما بخروجهِ من قيودِ الطبيعة أيضاً، وبالمقدارِ نفسِه من الزمن، عائشًا على غيرِ ما نَعِيش، ومانعًا جسده من جميعِ ما تحتاجُ إليه الطبيعةُ من القُوت.

هكذا أقام لهم المقدِس، ونقلَ إليهم الوصَايا، بعدما أنشأَ الكهنوتَ وَفْقَ ما أمرَهُ به الله. فبعدما أتمَّ هذه الأمورَ كلّها وفقَ أمرِ الله، كلَّ ما هو في الدّاخلِ، أعني مذبحَ البخور، ومذبح المُحرقة، والمنائِرَ، والستائِر، ومذبح التكفير في القُدس، وحليةَ الكهنوت، والطّيب، والذبائحَ المختلفة، ذبائحَ التطهير، وذبائحَ الشُّكران، وذبائحَ الاستنجاد على الشَّدائدِ، وذبائحَ التكفيرِ عن المعاصي، بعدما أتمَّ عندهم جميعَ هذه الأمور كما يجبُ، أثار عليه حسدَ الأقارب، ذلك المرضَ الشَّائع في الطبيعةِ البشريّة، حتى إنّ هارونَ نفسَهُ الذي خُصّ بشرفِ الكهنوت وشقيقتهُ مريم، وقد ألهبتها غيرةُ الأُنثى من

تعظيم الله لأخيها، قد فاها بأقوالٍ جلبَتْ عليها عقوبةَ الله. وقد ظهرَ موسى في هذه الحالِ جديرًا بمزيدٍ من التقديرِ والإعجاب، لما أظهرَ من الحِلم وسَعةِ الصَّدر. وفيما كان اللّهُ يريد ان يُعاقب جهالةَ المرأة الجائرة، غلّب هو الطبيعةَ على الغضب، وشفعَ في شقيقتهِ عند الله.

وعاد الشعبُ إلى التذمُّرِ والفوضى، (وكان في أَصلِ هذا الاضطرابِ الشَّبقُ إلى شهَواتِ البطن. فإنهم لم يكتفوا بأَن يعيشوا على الغِذاء الصّحيّ والطيّبِ الذي كان يهبطُ عليهم من فوقُ، بل أخذَتْهُم شهوةُ اللحم، وجعلَت لهم الرغبةُ في التقوُّتِ به، عبوديَّةَ مصرَ خيرًا من سعادتهم الحاضرة)، فخاطبَ موسى اللّهَ في شأنِ الأهواء التي عصفَتْ بهم؛ فعلَّمهم اللّهُ أن لا يَستميلَهُم مثلُ هذه الإحساسات إذ وهبَهُمْ ما يحصلونَ به على رغَباتهم، وجعلَ حَشْدًا ضخمًا من العصَافيرِ ينقضّ على المخيَّم جماعات جماعاتٍ وكأنّها الغيومُ، تطيرُ على مقربةٍ من سطح الأرضِ، بحيثُ انّ صيدًا بهذه السُّهولة أشبع قرمَهم إلى اللحم. لقد ذهب بأكثرهم الشَّبقُ من الأكل إلى اضطراباتٍ في أخلاطِ الأجسامِ سبّبت تقيُّؤاتٍ، وانتهى الشَّبَمُ معهم إلى مَرضٍ عُضالٍ مُميتٍ، وهو أمرّ من شأنِهِ ان يكونَ لهم ولمن كان يراهُم درسًا في القناعةِ والاعتدال.

بعد ذلك أرسلَ موسى عيونًا إلى النَّاحيةِ التي كانوا يرجونَ الإقامةَ فيها بحسبِ الوعد الذي عقدهُ اللّهُ لهم. وإذ لم يَصْدُق بعضُ هؤلاءِ العيونِ الخبرَ، بل نقلوا أخبارًا كاذبةً وغيرَ مُشجّعة، عادَ الشعبُ إلى التَّذمُّرِ والسُّخْطِ على موسى، فعنّف الربُّ أولئك الذين يَئِسوا من العَوْن الالهيّ وحسبوا أَنهم لن يروا الأرضَ التي وُعِدوا بها.

وإذ توغّلوا في البرّيّةِ أعوزَهُم الماءُ، وغابَتْ عن ذاكرتهم قُدْرةُ الله؛ ومُعجزةُ الصخرةِ السّابقةُ لم تبعث فيهم الثقةَ في أنَّهم سيَنالون الآن أيضاً كلَّ ما يحتاجون إليه؛ وعوضاً عن ان يُحيوا الأملَ في نفوسهم راحوا يُمطِرون اللّهَ وموسى بالاتّهاماتِ، حتى كاد موسى يخضعُ لضغط الكُفرِ عند الشعب؛ ومع ذلك فقد جدّدَ المعجزةَ وحوَّل الصّخرةَ الصَّمَّاءَ إلى ماء.

وعاودتهم أيضاً عبوديّةُ الشَّرَه وحرّكت فيهم رَغبةَ الأكل، في حين لم يكونوا بحاجة إلى شيءٍ من ضروريّاتِ الحياة، واستحوذَ حُلُم طيّباتِ مصرَ حتّى على شبّانِهم ولاسيّما المُنْحرفينَ منهم. وقد أُخضِعوا لعقوباتٍ أشدَّ هولاً، إذ ساوَرَتْهم أفاعٍ، بعثت فيهم السّمَّ بِلَدْغِها المُميت. وإذ كانوا يَسْقُطون، بعضُهم إثرَ بعض، بسُمِّ هذه الحيوانات، جاشت جائشةُ المُشترع، وعَمَدَ إلى نُحاسٍ صبَّهُ على صورةِ أفعى، ونصبَه على يَفاعٍ بحيثُ يَراه كلُّ المخيَّم، وهكذا وضع حدًّا في الشعب لهذا الضّررِ النَّاجمِ عن الحيوانات، وأنقذه من الهلاك؛ فكلُّ من كان يتوجَّهُ إلى صورة الأفعى النُّحاسيَّةِ كان بنجوةٍ من أذَى الأفاعي الحقيقيَّةِ، لأن هذهِ الالتفاتةَ كانت تُوقِفُ مفعولَ السمّ بفعلِ تنافُرٍ عجيب.

وشبّت فتنةٌ جديدةٌ في الشعب للاستيلاءِ على السُّلطة، فقد حاولَ البعضُ أن يستأْثروا بالكهنوتِ، فشفعَ موسى في الأشرارِ لدى الله، ولكنَّ عدالةَ حكمِ الله كانت أقوى من عطفِ موسى على أبناءِ قومه، إذ انفغرتِ الأرضُ ثم انطبقَتْ بإرادةِ الله، مُبتلعةً جميعَ

الذين قاوَمُوا سُلطةَ موسى. أمّا الذين تهافتُوا على الكهنوت، وعدَدُهم نحو مئتَيْنِ وخمسينَ، فقد التهمَتْهُم النار وكانوا بما حصَلَ لهم عبرةً لإخوانهم.

ولكي يكونَ الناسُ أشدَّ اقتناعًا بأنَّ نعمةَ الكهنوت هِبةٌ من الله للذينَ يستحقُّونها، طلب موسى مِن كل سبطٍ عصاً يُقدِّمها المقدَّمُ فيهِ وعليها أحرفُ اسْمهِ، وكان بين العصيِّ عَصا هارونَ الكاهن؛ فوضعها موسى أمامَ المقدسِ، وأوضحَ بها للشعب اختيارَ الله بالنِّسبةِ إلى الكهنوتِ، ذلك أَن عصا هارون وحدَها بين العِصيِّ أزهرت، وأثمرت ونضجَ ثمرُها، وكانت الثمرةُ لوزةً. فكان ذلك موضوعَ إعجابٍ، حتى لدى غيرِ المؤمنين، إذ رأَوا ما كان جافًّا وأملس وبلا جذور، يخضلّ فجأةً ويفعلُ ما تفعلُهُ النباتاتُ ذات الجذورِ، وتقومُ القدرةُ الالهيّة، بالنسبة إلى هذا العُودِ، مقامَ الأَرضِ، والقشرةِ، والنُّسغ، والجذر، والوقت.

بعد ذلك تقدَّم الجيشُ في وسط شعوبٍ غريبة كانت تعترِضُ لمرورِهِ، وقد حصَلَ موسى على ان ترفعَ هذه الشعوبُ المنعَ وتسمحَ للشعب الإسرائيليِّ بالمرور في الحقول والكروم، ولكنَّه أَجبر هذا الشعبَ على ان يسيرَ في الطريق السُّلطانيّ لا يميلُ يَمْنةً ولا يسرَةً. وإذْ كان الاعداءُ في ذلك الحين لا يُوقِفون هجماتهم، تغلّب عليهم حربيًّا وأصبحَ سيّدَ المَمرّ.

وكان هنالك رجلٌ اسمهُ بالاق، وكانَ رئيسًا على أقوى تلكِ الشّعوب، أي على المِدْيَنيّين، فهالَهُ ما رآه يحلُّ بالمغلوبين، وكان

يتوقّعُ ان يُصيبَهُ قريبًا من الاسرائيليّين ما أصَابهم، فأرسل يُنجدهم، لا بالسِّلاح والرّجالِ، بل بممارساتٍ سِحرْيّةٍ يقومُ بها رجلٌ اسمهُ بِلعام اشتهرَ بذلك، وكان يرى مَن لجأَ إليه أنَّه ذو قُدرةٍ. كانت طريقتهُ العيافةَ، ولكن الذي كان يجعلهُ مَرْهُوبَ الجانب أن له عدّةَ شياطينَ: فكان إذا سحَرَ نكبَ. وفيما كان يتبع بلعامُ قائديهِ إلى الملك نطقَت أتانُهُ وحذّرَتْهُ من مغبّةِ الزِّيارة. وبعد ذلك أُوحِيَ إليه بما يجبُ عليه أن يفعلَ، وقد أدرك أنَّ سحرَهُ أضعفُ من ان يُؤْذي من كان اللّهُ حليفَهم؛ وحلَّ فيه الوحيُ الالهيّ في مكانِ عملِ الشَّياطين، وفاهَ بأقوالٍ كانت تنبُّؤًا حقيقيًّا بأيّامٍ سعيدةٍ آتيةٍ. وهكذا مُنع من استعمال فنّهِ للإيذاء، وقد أيقظ هذا المنعُ وعْيَهُ للقدرةِ الإلهيّة، فودَّع السِّحر، وكان بارادة الله نبيًّا.

وعقبَ ذلك أَن استُئصلَ الغرباءُ بعدَ تغلُّبِ شعبِ الله عليهم. ولكنّ هذا الشعبَ غُلِبَ بدورهِ، غلبَتْهُ شهوةُ الفجور مع السَّبايا، فهّب فِنْحاسُ وأخذَ رمحًا وطعنَ زَوْجينِ أُخِذا في فجُورٍ، فتوقّفَ سخطُ الله على الذين اندفعُوا إلى الاقترانِ غيرِ المشروع. وكان موسى قد صعدَ إلى جيلٍ عالٍ ونظرَ إلى الارض التي وعدَ اللّهُ بها إسرائيل، وفارقَ الحياة البشريّة بدون ان يتركَ على الارض أثرًا ولا نُصبًا تذكاريًّا لانتقالهِ من هذه الحياةِ.

لم يشوّهِ الزّمنُ جمالَه، ولم يُطفِئ حِدَّةَ التألُّقِ في ناظِرَيْه، ولا أخذَ شيئًا من مهابةِ وجههِ النيّرة؛ انه لبثَ أبدًا كما كان، وحافظَ على ثباتِ جمالهِ في طبيعةٍ لا تثبتُ على حالٍ.

هذه هي الأمورُ التي اطلعَنا عليها تاريخُ الرجلِ الحرفيِّ، وقد بسطناها بايجازٍ، بل توسَّعْنا ببعضها عند الضرورة؛ وقد آن لنا الآنَ ان نُطبّق هذه الحياة التي رسمناها على الهدف الذي رمَى إليه كلامُنا، لِنجنيَ لحياةِ الفضيلة فائدة. ولنعرضْ إذن للقسم الاول من روايةِ هذه الحياةِ.

القسم الثّاني

إعتبار بحياة موسى

الولادة الروحيّة

وُلِدِ موسى مع قرار فرعون الطّاغية بقتل الاطفال الذُّكور. فكيف تستطيع حرّيَّتُنا ان تُجاريَ هذا الحادث الطّارئ؟ وقد يُقال بحقّ انه ليس من شأننا ان نجاريَ بولادتنا هذه الولادة الفريدة. ولكن هذه الصُّعوبة الظاهرة التي تبرز في اول الطريق، يجب ان لا تُوقفَ مسيرتنا.

كلٌّ يعرف أنَّ جميعَ الكائناتِ الخاضعة للصَّيرورة لا تبقى على ذاتِ حالها، ولكنّها تنتقل أبدًا من حالٍ إلى حال، في حركةِ تغيُّرٍ متواصلةٍ، تكونُ للخيرِ أو للشرّ. هذا وإنّ الميلَ إلى شهواتِ الجسد، التي تجرُّ البشرَ وتسبّب عثراتِهم، تُمثِّلهُ الفتياتُ اللواتي يحسنُ للطاغِيةِ أن يراهنّ مُتكاثِراتٍ، بخلافِ الفتيانِ الذين يَمْقتهُم، والذين يُخيَّلُ إليه أنهم سيُطيحون بسلطانهِ، وهم يمثّلونَ الفضيلةَ القَاسِيةَ والقويّة.

الخضوع للتغيُّرِ هو ولادةٌ متواصلة، وفي عالمِ الصيرورة لا نجدُ كائناتٍ هي ابدًا على ذاتِ حالِها؛ والولادةُ هنا لا تأتي عن تدخُّلٍ خارجيّ كما هي الحال في عالمِ الكائنات الجِسْمانيّةِ التي تُنجِب على هواها؛ انها ثمرةُ اختيارٍ حرٍّ، ونحن والحالةُ هذه، إذا صحّ القولُ، والدو ذواتِنا، نخلق انفُسَنا كما نريدُ ان نكونَ، ونُشكِّل أنفُسَنا بارادتنا وفقَ المثالِ الذي نختارُه، ذكرًا أو أُنثى، بالفضيلة أو بالرَّذيلة. هكذا نستطيع، وإن عارَضَ الطاغيةُ، ان نولدَ لحياةٍ ساميةٍ، وأصحابُ الولادة (وهم الحركات الخيّرة في النفس) يسرهم ان يَروْا أبناءَهم يحيَوْن على خِزيِ الشَّيطانِ. فإذا استخْرجْنَا من هذه الرّوايةِ ما تُوحي به من معنى روحيّ نرى بوضوحٍ أنَّ الدرس الذي يُلقيه علينا هو أنَّ في أَصلِ الفضيلةِ ولادةً تُسخِطُ العدو، ولادةً روحيّةً تُشرِفُ عليها الحُريّة. وما سُخْطُ العدوِّ الاّ البرهانُ الواضحُ على هزيمتهِ؛ كما أنه من شأنِ الحريَّةِ ان تمنحَ الولادةَ للطّفلِ الذي يُمثِّل الفضيلةَ، كذلك من شأنها أن تُغذِّيَهُ بالأَغذيةِ المُلائمةِ، وأن تحتاطَ عليه لكي ينجوَ من خطر المياهِ. فمَن كانوا يُقدِّمون أبناءَهم للطَّاغيةِ كانوا يُقدِّمونهم عُراةً وبدونِ حمايةٍ على النَّهر – وأريدُ بالنهر الحياةَ التي تُحرِّكها أَمواجُ الشهَّواتِ المُتتاليةِ – حتى إذا كانوا في النَّهر غرِقوا وابتلعَتْهُم المياهُ. أمّا والِدُو الأَطفالِ، وهم يُمثِّلونَ الاستعداداتِ الطيّبةَ في النفسِ الحكيمةِ، إذا اضطرَّتْهم ضَروراتُ الحياةِ إلى إلقاءِ أَبنائِهم في المياهِ، فإنهم يَجْعلونهم في سَفَطٍ لِئلاَّ يَغْرَقُوا في النَّهر. وهذا السّفَطُ المصنوعُ من مَجْدولِ السَّمار يُمثِّل التَّربيةَ التي هي نتيجةُ أنظمةٍ مختلفة. فهي تُبقي من تحملُه فوقَ اضطراباتِ الحياة، وبِفَضلِها لن يشردَ على وجهِ

المياه، تشدّهُ الأمواجُ من هُنا إلى هُنا، بل سيُرفئُ إلى المَرْفإ، وقد دفعَتْه حركةُ المياهِ نحوَ الشاطئِ، وسَيَخرُجُ من أُوقيانوس الحياة. هذا ما تُعلِّمُنَاهُ التجربةُ نفسُها، فالنَّاسُ الذينَ لم تَغْمرهُم مياهُ الأوهام البشريّةِ، تَقْذِفُهم الأَحداثُ نفسُها بحرَكتها التي لا تنقطعُ، وكأنها تَعُدُّ من يقاوِمُها بفضيلتهِ عبئًا غيرَ ذي فائدةٍ. وعلى كلِّ حالٍ فليَقْتفِ بموسى كلُّ مَن نَجا من هذه المَخاطر، ولا يَبْخلْ بدمُوعهِ حتى إذا كان في أمانِ السَّفَط، لأنّ الدُّموعَ تُحافظ على أمانةِ مَن أَنقذَتْهم الفضيلةُ.

إبنةُ فرعونَ العقيمةُ والتي لا أولادَ لها (أعتقدُ أنّه من الممكنِ ان نفهمَ بها الفلسفة) تتبنّى الصّبيَّ وتجعلهُ لها بحيثُ تُدعى أمًّا له؛ وقد رضيَ الصبيُّ ان لا يتنكّر لِقُرْبى هذه الأمّ المزيَّفةِ ما دام لم يبلُغْ سِنَّ الرُّشد، ولكنَّه عندما أصبحَ رجلاً، رأى من العار أن يُعدَّ ابنًا لامرأةٍ عاقرٍ بالطبيعة. تلك هي التربيةُ الدُّنيويَّةُ التي تحبَلُ دائمًا ولا تلدُ أبدًا. يا لَلثَّمرةِ التي تُنتجها الفلسفةُ بعدَ حَبَلٍ طويلٍ! تُراها جديرة بمثلِ هذا الجهد؟ إنهم جميعَهُم فارغونَ ومُسوخ، ويُجْهَضونَ قبل ان يبلغوا إلى نور معرفة الله. كان بإمكانهم ان يصيروا بشرًا لو لم تنحصِرْ تدفِئَتُهم في حشَا الحكمةِ العقيمة.

وهكذا بعدما قاسم موسى أميرةَ المصريّينَ حياتَها بقدر ما استطاعَ الإفادةَ مَن المكاسبِ التي كانت تُقدِّمُها تلك الحياةُ، ارتدّ إلى تلك التي كانت أُمَّهُ الحقيقيَّةَ. وحتى في زمنِ نشأتِهِ لَدى الأَميرةِ لم يكُنْ في الحقيقةِ مُنْفصِلاً عن أُمّهِ الحقِيقيَّةِ، فالكتابُ يُخبرُنَا انه كان يَغْتَذِي

بلَبنِ تلكَ الأمّ. وهذا يَعلِّمُنا، على ما يَبْدو لي، أنَّهُ يجبُ علينا، إذا أكبَبْنا على تحصيل الثقافةِ الدُّنيويّةِ، في مرحلةِ تَنْشِئَتِنا، ان لا نُفطمَ عن لبنِ التي غذَتْنا أي الكنيسة. فهذا اللبنُ هو الأسَرارُ التي تُغذِّي نفسَنا، وتنشِّطُها، وتهبُها طاقاتٍ تجعلها ترتفعُ أكثر فأكثر.

وانه لصحيحٌ أيضاً الكلامُ الذي يُقدِّم لنا الانسانَ وهو بينَ عدوَّيْنِ هما توجُّههُ في آنٍ واحدٍ إلى الإيمانِ التقليديّ، وإلى عقائدَ غريبةٍ. فهما في الواقِعِ عَدوّانِ، أعني ديانةَ إسرائيلَ والخرافاتِ الوثنيّةَ التي تُحاولُ ان تظهر متفوّقةً عليها. لقد ظهرتْ كذلك تلك الخرافاتُ عندَ عددٍ كبيرٍ من المُغفَّلين، الذين تركوا الإيمانَ التقليديّ وانحازُوا إلى اعدائهِ، مُخَالفينَ بذلك تعاليمَ آبائِهم. ولكنَّ موسى، وهو الرجلُ العظيمُ والنَّبيل، كان من شأنهِ أن يَقضيَ على عدوِّ الإيمانِ بضربةٍ من ضرباتهِ.

من الممكنِ ان يُفسَّر هذا المشهدُ على وجهٍ آخرَ فنرى فيه الصِّراعَ الذي ينشبُ في كلِّ واحدٍ منّا. فنحنُ قائمونَ في الوسط، في موقعِ جائزةِ القتال التي يطمحُ إليها كلُّ خصمٍ، على أنَّ النصرَ يُحرزهُ مَن نكونُ نحن إلى جانبهِ. والخَصمانِ المُتصارعانِ، كالعبرانيّ والمصريّ، هما الوثنيَّةُ والدِّيانةُ الحقيقيّة، والعفّةُ والتهتُّكُ، والعَدْلُ والظُّلم، والتّواضعُ والكبرياءُ، وجميعُ الأمورِ التي تُسْتَخلصُ من قتال المصريّ والعبرانيّ. فموسى يُعلِّمنا بمثالهِ أن ننتصرَ للفضيلةِ التي تربطُنا بها الرَّوابطُ، وأن نَسعى للتغلُّبِ على عدوِّها. وإنّه لأمرٌ واحد أن تنتصرَ الديانةُ الحقيقيّة على الوثنيّة، وان تَسْتأصلَ العدالةُ الظّلمَ، ويَمْحو التواضعُ الكبرياء.

أمّا القتالُ بين عبرانيٍّ وعبرانيٍّ فانّنا نجده أيضاً فيما بَيْنَنا؛ فلو لم تَنْهضِ الآراءُ الضالّةُ لِتُحاربَ العقائدَ الصَّحِيحة لَما كنّا رأينا ظهورَ البِدَعِ الهدّامة. فإذا آنَسْنا في أنفسنا من الضَّعف ما لا نتمكَّنُ معه من نُصرةِ الحقيقة، وشاهدنا مساعيَ الشرِّ متغلّبةً، وسلطانَ الحقيقةِ مَدْحورًا، وجبَ علينا الهربُ على وجهِ السُّرعةِ على مِثالِ ما عرفنا من سِيرةِ موسى، لكي نعودَ إلى مدرسةِ أسرارِ الإيمان. وإذا كان علينا أيضاً أن نعيشَ عند الغريب، أي اذا اضطَّرتنا الحاجةُ إلى أن نُقِيم علاقاتٍ مع الحكمةِ الدّنيويّة، فلنبدأ بإزاحةِ الرُّعاةِ الأشرارِ الذين يَحتلُّون الآبارَ بدونِ حقٍّ، أي فلنتجنَّبِ الرُّعاةَ الأشرارَ الذين يُفسِدُون استعمالَ الثَّقافة. عند ذلك نعيش على انفرادٍ بدونِ ان يكونَ بيننا وبينَ خصومِنا نزاعٌ، وبدونِ أن نُحَكَّم في الخصُومات، نَعيشُ في اتّحادِ الفكرِ والعاطفةِ مع الرُّعاةِ الذين يُشاركونَنا في الحياةِ، وجميعُ حركاتِ نفسِنا خاضعةٌ لقيادةِ الروح، وكأنّنا قطيعُ نعاجٍ يقودُها راعيها.

العُلَّيْقة المحتَرقة

وما دُمنا نحن مُقيمينَ على السلام وعلى الرَّاحة فالحقيقة تُنيرُنا بأنوارها وتُنيرُ عينَي نَفسِنا. وهذه الحقيقةُ التي تجّلتْ في حادثةِ العُلَّيقةِ المحترقةِ انما هي اللّهُ. فلَئِن استنارتْ نفس النبيّ بعُلَّيْقةٍ شائكةٍ محترقةٍ فالأَمرُ لا يخلو من فائدةٍ للبحث الذي نُعالِجه؛ فإن كانتِ الحقيقةُ هي الله، وإن كانت هي أيضاً نورًا – هذانِ هما التعبيرانِ

السَّاميانِ اللذانِ يَستعمِلُها الإنجيلُ للدَّلالةِ على الله الذي ظهرَ في الجسد من أجلنا – فنصُّ التاريخِ يُرينا أَنَّ سُلوكَ طريقِ الفضيلةِ يقودُنا إلى معرفةِ هذا النُّورِ الذي تنازَلَ إلى الطبيعةِ البشريّة: ليسَ هو نورًا مُنبعِثًا من إحدى النَّيِّرات – ولو كان كذلك لَعُدّ تألُّقهُ من المادّةِ الفلكيّةِ –، ولكنَّهُ بانبعاثهِ من عُلّيقَةٍ أرضيّةٍ يتفوَّقُ بأشعَّتهِ على كواكبِ السَّماء. هذا المقطعُ من الكتابِ يُفهمنا أيضاً سرَّ الولادةِ البَتوليّةِ، أي أنّ النارَ الإلهيّةَ التي بولادتها أنارَتِ العالمَ، تركتِ العلّيقةَ سليمةً مع آنبعاثِها منها، والوِلادةَ لم تُذْبل زهرَةَ بتوليّةِ مريم[٥].

الدرسُ الأوَّلُ الذي يُقدّمهُ لنا هذا النُّورُ هو ما يجبُ علينا فِعلُهُ لِنَثْبتَ تحتَ أشِعّةِ النُّورِ الحقيقيّ؛ وإنّه لَيمتنعُ على الأَرْجلِ المحذوَّةِ أن تُسرعَ نحوَ الأعالي حيثُ يظهرُ نورُ الحقيقةِ، فلا بُدَّ لِرِجْلَي النّفس من خَلْعِ نَعْلَي الجُلودِ المَيْتةِ التي كُسيَتْها طبيعتُنا في البدءِ عندما عُرِّينا بسببِ عِصيانِنا لأمرِ الله. فعندما نقومُ بهذا الأمر يَتجلّى لنا علمُ الحقيقةِ تلقائيًّا، وهكذا فمعرفةُ ما هو كائنٌ هي نتيجةُ تطهيرِ الرَّأي الذي يُعالجُ ما هو غيرُ كائنٍ. وهذا في نظَري تحديدُ الحقيقةِ، أي انها القبضُ اليَقينيُّ على الكائن؛ والضَّلالُ هو توهُّمٌ يولَدُ في النفس ويُلقي على ما هو غيرُ كائنٍ ظاهرةَ الكَيْنونةِ[٦]؛ أما الحقيقةُ فهي الإدراكُ الثابتُ لما هو في الحقيقةِ موجودٌ. ومن ثمَّ فلا بُدَّ مِن أوقاتٍ

---

(٥) يبدو ان غريغوريوس كان أوّل من رأى في العليقة المحترقة صورةً لمريم العذراء في أمومتها البتول.

(٦) هذا التحديد أفلاطونيّ.

طويلةٍ خاشعةٍ تُقضَى في تأمُّلِ هذه القضايا السَّامِيةِ، للوصولِ إلى الإدراكِ الشاقِّ لما هو الكائنُ الذي يملكُ الكينونة بطبيعتهِ، وما هو غيرُ الكائنِ الذي لا يملكُ إلاّ ظاهرةَ الوجودِ، وليس له في ذاته أيُّ حقيقةٍ.

يبدو لي أنَّ ما أدركه موسى، على نورِ التجلّي، هو أنْ لا شيءَ ممّا يقعُ تحتَ الحواسِّ أو ممّا يتأمَّلهُ العقلُ، يوجدُ في الحقيقةِ، وانما الوجودُ للكائنِ العليِّ وخالقِ الكونِ الذي به يتعلَّقُ كلُّ كيانٍ. وهكذا فأيًّا كان، خارجًا عنهُ، الكائنُ الذي يتوجَّهُ إليه العقلُ، لا يجدُ فيه هذا العقلُ الكفايةَ التي تُمكِّنهُ من الوجود بمعزلٍ عن الاشتراكِ في الكينونةِ؛ ولكنّ الذي لا يتغيّرُ، الذي لا يخضَعُ لزيادةٍ ولا نقصانٍ، الممتنعَ عن كل تغيّرٍ نحو الأفضلِ أو نحو الأدنى – إذ هو غريبٌ عن كلِّ تدنٍّ وما من شيءٍ يَفْضلُهُ – الذي يكتفي بذاته كليًّا، الذي هو وحدَهُ المُبتَغى، الذي يشتركُ معه الجميعُ في الكينونةِ من دون ان تُفْقِدَهُ هذه المشاركةُ شيئًا من كينونتهِ، هذا هو الكائنُ في الحقيقة، ومعرفتنا له هي معرفةُ الحقيقةِ. فهذا هو الذي اقتربَ منه قديمًا موسى، والذي يَقْتربُ منه اليومَ كلُّ إنسانٍ يحذو حذوَ موسى، فيخلَعُ عنه غلافَهُ الأرضيَّ، ويتّجهُ نحو النُّورِ المُنبعثِ من العُلّيقة، نحو الشُّعاعِ الخارجِ من الشَّوكَ صُورةِ الجسدِ، الشُّعاعِ الذي ٱلتمعَ لأجْلنا، والذي، على حسبِ قولِ الإنجيل، هو النورُ الحقيقيُّ والحقيقة.

مثْلُ هذا الرَّجلِ هو من ثَمّ قادرٌ أن يُساعدَ أيضاً الآخرين على الخلاص، بدَكِّ أركانِ الطُّغيانِ عند قوّاتِ الشرِّ، وبإعادةِ الحرّيةِ إلى

جميعِ الذين كانوا في رِبْقةِ عُبوديَّتهم. ومُعجِزتَا إفسادِ اليدِ اليُمنى وتحويلِ العصَا إلى حيّةٍ هما التّعبيرُ الأوّلُ. يبدو لي أنّهما يعنيانِ رمزيًّا سرَّ ظُهورِ الأُلوهةِ للبشرِ في جَسَدِ الربِّ، أي السّرَّ الذي يُقِرُّ اندحارَ إبليسَ وتحريرَ مَن كان يستبدُّ بهم[٧]. والذي يَسوقني إلى هذا التفسيرِ هو شهادةُ العهدينِ القديمِ والجديد: فمن جهةٍ يقول النبيُّ إنّ يَمينَ العليِّ تغيّرت» (مز ٧٦: ١١)، كما لو أنَّه تأمَّلَ الطّبيعةَ الإلهيّةَ في ثباتها على حالٍ واحدة، فرآها تتنازَلُ شَفَقةً على ضعفِ طبيعتِنا وتتَّخِذُ صورةَ هذهِ الطّبيعةِ. وكما أنَّ يدَ موسى تتلوَّنُ بلونٍ ليس طبيعيًّا لها عندما يُخرجُها من جَيبِ ثوبه، ويعودُ إليها لونُها الطبيعيُّ عندما يَردُّها في جيبهِ، هكذا اللّهُ الابن الوحيد، «يمينُ العليّ»، الذي هو «في حِضنِ الآب»، عندما خرجَ من حِضنِ الآبِ ليتجلَّى لنا، أخذَ صورَتنا، ثم بَعْدما شَفَى أَسقامَنا، وردَّ في ذاتِ حضنهِ (فالآب هو حِضنُ مَن له اليد) يدَهُ التي كانت فيما بيننا والتي اتَّخذت لَوْنَنا، لم تُصبحْ طبيعتُهُ قابلةَ التحوُّل، بخلاف طبيعتِنا الخاضعةِ للتغيُّراتِ والقابلةِ التحوُّل، التي تتجلَّى وتُصبحُ غيرَ قابلةٍ التحوُّل باشتراكها في اللاتبدُّليّةِ الإلهيّة.

أمّا بالنسبة إلى تحوُّلِ العصَا إلى ثُعبانٍ، فلا يُقلِقْ أصدقاءَ المسيح ولا يستنكِروا أن يُطبَّقَ رمزيًّا على السرّ وإن ظهر نابيًا عنه. فان الحقَّ نفسه، بصوتِ الإنجيل، لا يستنكره عندما يقول: «كما رفعَ موسى الحيّةَ هكذا ينبغي ان يُرفَع ابنُ البشر» (يو ٣: ١٤). والفكرة

(٧) صورة أخرى للتجسُّد، نجدها أيضاً عند كيرلس الاسكندريّ.

واضحة: إذا كان فاعل الإثم مدعوًّا في الكتاب المقدّس حيّةً، فالمولودُ منه هو بالضّرورة حيّةٌ؛ والخطيئة من ثمَّ تُسمَّى باسم فاعلها؛ والحال ان «الربّ جُعِل خطيئةً من أجلِنا عندما اتّخذَ طبيعتَنا الخاطئة» (٢ كور ٥ : ٢١)، على حدِّ قولِ الرسول. فبحقٍّ طُبّق هذا الرمز على الربّ[٨]. فإذا كانت الخطيئة حيّةً، وكان الربُّ قد جُعل خطيئة، كان لا بُد من الاستنتاج أنّ الذي جُعل خطيئةً جُعِل حيّة، على أنَّ الحيّة مُرادِفة للخطيئة. وقد جُعِل حيّةً بسَببِنا، حتى تَلتهمَ وتُبيدَ ثعابينَ مصر التي أخرجها السَّحَرة. وعندما تمّ الأمرُ عادت عصاً كما كانت، وبهذه العصَا أُدِّبَ الأثمَةُ، وعُضِد من يسلكونَ طريقَ الفضيلةِ الصاعدةَ والوَعْرة معتمدين بالآمالِ المقدّسة على عصا الايمان: «فالإيمانُ هو قيامُ المرجوَّات فينا» (عب ١١ : ١).

من آرتقى إلى إدراكِ هذه الأسرارِ يصبح في الحقيقة إلهًا بالنسبةِ إلى البشرِ الذين يقاومون الحقيقةَ، تستهويهم أوهامُ الدنيا الماديّةُ الفارغةُ ويستخفّونَ بالاستماع إلى الكائن، وكأنه شيءٌ غيرُ ذي بال. هذا هو ما يقولهُ فرعون: «مَن هو فأخضعَ لِقولهِ؟ انّي لا أَعرفُ الربّ». انه لا يُقيمُ وزنًا إلاّ للأمورِ الماديّةِ التي تُوفِّر المباهجَ الحسيَّة. أما الذي حصَلَ على نعمةِ الاستنارةِ بالنّورِ، والذي تلقّى مزيدًا من القوّةِ والقدرةِ على الخصُوم فهو كالبطلِ الذي تدرَّبَ، في رياضاتِ القوى إلى جانب مُدرِّبهِ، تدريبًا كافيًا، وأصبح كاملَ الثِّقةِ والجرأةِ

(٨) تحويل العصا إلى حيّة هو أيضاً صورة للتجسُّد؛ وقد كرّر ذلك كيرلس الاسكندري.

فيتجردُ لمباشرةِ الصِّراع. انه يحملُ بيدهِ العَصا، أي تعليمَ الإيمانِ، الذي سيتمكّنُ به من الانتصارِ على ثعَابينِ مصر.

ستَصحبُهُ امرأتهُ، وهي من عِرْقٍ غريب. فهنالك في الثقافةِ الدنيويّةِ شيءٌ لا يجوزُ طرحهُ في التَّنشئةِ على الفضيلة[٩]. فالفلسفةُ الاخلاقية وفلسفةُ الطبيعةِ يمكنُهما ان تُساعدا من يَهْوَونَها ويتعَاطَونَهُما على التعلّي والترقّي بشرطِ ان يَـبْرأَ ثمرُهما من كل ما فيه فسادٌ غريب[١٠]؛ لأنَّه إذا لم يكن مختونًا ومجرَّدًا من كل عنصرٍ أذًى وفسادٍ فالملاك الذي يأتي للقائهم يهدِّدُهم بالموت؛ فعلى المرأةِ ان تُهدِّئه بتطهيرِ ابنها بنزعِ العلامةِ الخاصَّة التي يُعرَفُ بها أنّه غريب. واني أظنّ ان مَن كان له بعض الإلمام برمزيّةِ التاريخ، وتابعَ سلسلةَ الرُّموز، يبدو له بوضوح ما نعرضُهُ من سَيْرِ التقدُّم في الفضيلةِ. فهنالك شيءٌ مادِّيٌّ وغيرُ مفيدٍ في ثمر حكمةِ العلوم المختلفة. فإذا رُفعَ كان الباقي إسرائيليًّا أصيلاً. وإليكَ بعضَ الأمثلةِ. الفلسفةُ الوثنيّةُ تقولُ أيضاً بخلودِ النَّفس، وهذا أمرٌ حسنٌ في ثمرِها؛ ولكنَّها تقولُ بالتّناسُخِ وبانتقالِ كائنٍ رُوحانيّ إلى حيوانٍ، وهذه هي الإضافةُ المادّيّةُ والغريبة[١١]. وهنالك أمثلةٌ أُخرى كثيرة. وهي تقولُ بوجودِ الله، ولكنَّها من جهةٍ ثانيةٍ تذهبُ إلى انه مادِّيّ[١٢]؛ وتعترفُ بأنَّهُ خالِقٌ، ولكنَّها تُضيف

(٩) يرى فيلون واوريجانُس وغريغوريوس في النساء الغريبات رمزًا إلى الثقافة غير الدينيّة.

(١٠) يرى بعضهم في هذا التنكّر للفلسفة اليونانيّة ترسُّمًا عند غريغوريوس لخطّة اوريجانس.

(١١) هذا نقد لرأي افلاطون.

(١٢) هذا نقد للفكرة الرواقيّة في الله.

أنه بحاجةٍ إلى مادَّةٍ لكي يصنعَ العالم[١٣]؛ وهي تنعتهُ بالصَّلاحِ والقُدْرة، ولكنها تُخضِعهُ في أمورٍ كثيرة لِسَيْطرة القَدَر[١٤]. وانّنا إذا تتَّبعنا كلَّ قضيّةٍ رأينا كيف أنَّ الفلسفةَ الوثنيّةَ تُفسِدُ مذاهبَ رائعةً بإضافاتٍ لا يَقبَلُها العقلُ؛ فإذا أسْقَطناها أيَّدَنا ملاكُ اللّهِ، ووافقَ على ما هو صالِحٌ في هذه التَّعاليم.

لقاء الملاك

ولكن يجبُ ان نعودَ إلى نصِّ السيرة لكي نجدَ العونَ الأخويَّ آتيًا لِلقائِنا في الوقتِ الذي ينشب فيه القتالُ بيننا وبينَ المصريّينَ. ونحن نذكرُ ان اللقاءاتِ التي قامَ بها موسى، في مطلعِ رسالتهِ، كانَت حربيّةً، لقاء العبرانيّ يضربهُ مصريٌّ، ولقاء العبرانيّ يُهاجمه عبرانيّ.. أمّا الآن وقد ارْتقَى إلى درجةٍ أعلى في فضائلِ النفس، بِمُواظبتهِ على التمرُّسِ الطَّويل، وبفعلِ الأنْوار العلويّةِ، فكان لقاؤه سعيدًا وسلاميًّا مع أخيهِ الذي أرسلَهُ إليه الله. وقد يكونُ مفيدًا في ما نهدفُ إليه أن نَنْقُلَ هذا الحادثَ إلى المعنى المجازيّ. فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الذين يمارسونَ الفضيلة يتلقّون من الله المعونةَ التي منحَها لِطبَيعتِنا، المعونةَ القائمةَ سابقًا، إذْ إنها رافقَتْنا منذُ الولادةِ[١٥]، والتي لا تظهرُ ولا نشعرُ بها إلاّ عندما نكون على أُلفةٍ كافيةٍ مع حياةِ العلاءِ بالتقدُّمِ والمُثابَرةِ الجَاهِدة، وعندما نتجرّدُ استعدادًا لمعاركَ ضاريةٍ.

---

(١٣) هذا نقد لمذهب افلاطون في قِدم المادّة.

(١٤) هذا نقد لفكرة الرواقيّين في القدر.

(١٥) يرى غريغوريوس ان الله يجعل لكل انسان منذ ولادته ملاكًا حارساً.

ولكي لا أَظهرَ وكأَنّني أُفسّر السرَّ بالسرّ سأَبْسُطَ بوضوح أشدَّ معنى هذا المقطع. هنالك عقيدةٌ جديرةٌ بالثِّقةِ، مصدرُها تقليدُ الآباءِ، وهي تقولُ إنَّ العنايةَ الإلهيّةَ، بعد سقوطِ طبيعتِنا في الخطيئةِ، لم تتركْنا في تَعثُّرِنا، ولكنها جعلَتْ إلى جانبِ كلِ واحدٍ منَّا ملاكًا بطبيعةٍ غيرِ جسْمانيّةٍ لكي يكون له عونًا في الحياة؛ وتقولُ أيضاً إن الجانيَ على جنسِنا البشريّ يسعى إلى أَذَاةِ حَياةِ الإنسان، فينهَجُ النهجَ نفسَهُ بشخصِ شيطانٍ شريرٍ ومُؤْذٍ. وهكذا يصبحُ الإنسانُ بين الخصْمَيْنِ المختلِفَي النَّوايا. وهو الذي يُغلِّب هذا أو ذاك. الروحُ الصّالحُ يعملُ في النفس مبيّنًا الثّوابَ الذي يرجوهُ أولئك الذين يُمارسونَ الفضيلة، والآخر مُقدِّمًا مُتَعًا حسيّةً لا يُرجَى منها أيُّ صلاحٍ، ولكنّ ملذَّتَها ومرآها يُقيِّدانِ قوى النفوسِ الضّعيفة. فإذا احترزَ الإنسانُ من إغراءاتِ الشرّ وتوجّه داخليًّا نحو الخيرِ، مُديرًا ظهرَهُ للرَّذيلةِ، تكون نفسه، وقد اتّجهتْ نحو الخيراتِ الآتية، كالمرآةِ ترتسمُ على صَفائِها صُوَرُ الفضيلةِ وأشكالها التي قدّمها الله؛ وعند ذلك يأتيه أخٌ مُساعِدٌ ويقفُ إلى جانبهِ؛ فالإنسانُ، بجُزْئِهِ العاقِلِ والرُّوحاني، جديرٌ بأن يُعَدَّ أخًا للملاك الذي يظهرُ ويأتي لمساعَدتِنا عندما نَدْنو مِن الفرعون.

لا يذهبَنّ أحدٌ إلى أَنّ هناك معادلةً بينَ القَصصِ التاريخيّ وتفسيرهِ الروحيّ بحيث إنّه إذا وقعَ على جزءٍ مخالفٍ له اتّخذ منه عُذرًا لإنكارِ الكلّ. فَليذكُر دائمًا الهدفَ الذي وجَّهْنا إليه أنظارَنا في ما عالجَنْاه[١٦]، والذي ذكَرْنَاه في المقدّمة: حياةُ العُظماءِ معروضةٌ لِنسلهم

(١٦) يرى غريغوريوس ان تفسير الاعمال الفكريّة في دقائقها وتفصيلاتها يجب ان يتمّ

على أنّها نموذجٌ في الفضيلة؛ ولكنَّهُ من غير الممكِن لِمَن يطمحونَ إلى التشبُّه بهم أَنْ يُواجهوا الأحداث المادّيةَ نفسَها. فَأنّى يُصادَفُ مجدَّدًا الشعبُ الذي تكاثرَ عقِبَ هِجْرته إلى مصرَ، أو الطّاغيةُ الذي آستعْبَده، وكانَ عدوًّا للذكورِ من الأطفَالِ، ومُشجّعًا لتعدُّدِ الإناثِ؛ وهكذا بالنسبة إلى باقي أحداثِ السِّيرة. وإِذْ كان من الثابتِ انه من غيرِ الممكن تقليدُ أعمالِ القدّيسينَ الرائعةِ مادّيًّا وجبَ نقلُ الأمورِ من المعنى التاريخيّ إلى المعنى الرُّوحي كلّما تيسَّر ذلك، لكي تجدَ في ذلك النفوسُ التَّقِيَّةُ عونًا. فإذا جَرى أنَّ أَحدَ الأحداثِ الواردةِ في التاريخِ لا يَنْسجمُ ومجرى كلامِ التفسيرِ الرُّوحيّ، ضرَبْنا عنه صفحًا لأنّه لا يُفيدُ ما نهدفُ إليه، وواصَلْنا كلامنا عارضينَ للأمور التي يُمكنُ تطبيقُها على الفضيلة.

أقولُ هذا بسببِ تفسيرِ شخصيّةِ هارونَ لأُجيب سلفًا عن اعتراضٍ قَد يُقدَّم فيما بَعْدُ؛ فقد يقولُ أَحدُهم إنّه لا شكّ في أنَّ الملاكَ من نفسِ طبيعةِ النَّفسِ في قسمِها العقليّ واللاّجسمانيّ، وأنَّ خَلْقَه سبقَ خلقَنا، وأنه يُرافِقُ ويساعِدُ مَن يتصارعونَ مع العدوّ، ولكنَّه من الخطأِ أن يُرى مِثالُه في هارونَ الذي جرَّ الاسرائيليّينَ إلى عبادةِ الوثنِ. ونحن نُجيبهُ، مُسْتبقينَ ما تبقّى من سلسلةِ الأحداث، بما قلناهُ آنفًا وهو أَنَّ حَدثًا شاذًّا لا يُلغي قيمةَ آنطباقِ الأحداثِ الأُخرى. ونقولُ أيضاً إن التَّعبيرَيْنِ المترادفَيْنِ «ملاك» و «أخ» قابلانِ لِتَفْسيرينِ مُتضادَّين: فإنّه يُقال «ملاكُ الله»، كما يقال «ملاَكُ إبليس»

وفقًا للهدف الذي رمى إليه المؤلّف.

(٢ كور ١٢ : ٧)؛ ونحن لا نَدْعو من كان صالحًا وحدَهُ أخًا، بل الطَّالِح أيضاً: وهكذا فالكتابُ يتكلَّم على الصَّالحين عندما يقولُ: «الإخوانُ ينفعونَ في الضّيقات» (أم ١٧ : ١٧)، وعلى الطَّالحينَ حيثُ كُتِب «كُلُّ أخ يتعقّبُ أخاهُ» (إر ٩ : ٤).

التجارب الأولى

فلنَعُدْ إلى حَديثِنا بعدَ هذا التَّوقّفِ عندَ أمورٍ تقتضي في مَحلِّها نظرًا أدقَّ وأعمقَ. لقد شاهَدْنا موسى وقد شدّدَهُ ظهورُ النُّور، ووجَد في أخيهِ الذي أتينا على ذكرِهِ حليفًا وسندًا. وها هوذا الآنَ في مِلءِ الثقة يحثُّ الشعبَ على التَّحرُّر، ويذكّرهُ بأمجادِهِ السَّالِفةِ، ويُرشدِهُ إلى طريقةِ التخلُّصِ من عمل اللّبن الشاقّ. فماذا يُعلِّمنا التاريخُ بذلك؟ انه يُعلِّمُنا أَن لا يَحْمِلَنا الغرورُ على مخاطبةِ الشعبِ قبلَ تمرُّسٍ طويلٍ يجعل كلمتَنا في مُسْتوى الجماهيرِ الكبيرة. فأَنت ترى كيف أَنَّ موسى، في حداثتِهِ التي لم تصل بعدُ إلى هذه الدرجةِ العُليا مِن الفضيلة، لم يستطِعْ أن يحملَ الرَّجُلَيْنِ المتقاتلينِ على تقبّلِ خطّة السَّلام التي دعاهُما إليها؛ وهو الآن يتوجَّهُ إلى الأُلوف مِن الناس. وقد تصيحُ بك هذه القِصّةُ أن لا تجرُؤْ على تعليمِ الناس وتقديمِ النّصيحةِ لهم قبل اكتسابِ السُّلطة على ذلك بالدَّرسِ الطويلِ والرَّصينِ.

وما إن حثّ موسى سامِعيهِ، بهذا الكلامِ الرَّشيدِ، على استرجاعِ حُرّيّتِهم، وألهبَ فيهم الرَّغبةَ في ذلك، حتى استشاطَ العدوُّ غضبًا وضاعفَ التّنكيلَ بهم. وفي هذا أيضاً درسٌ لنا؛ فكثيرونَ لَبّوا نداء

التحرُّر من الظُّلم، وأصاخُوا للإنجيل، وهم الآن عُرضةٌ للتجاربِ التي يُهاجمهم بها الخصمُ الشرّيرُ. ومنهم عددٌ كبير روّضَتْهم الخُبرةُ، ورسَّختهم التّجربةُ في الإيمان، ولم تزدهم هجماتُ العدوّ إلاّ تشدُّدًا ورسوخًا؛ ومنهم الضّعفاءُ الذين نخورُ قواهم أمامَ مثلِ هذه الهجماتِ، فيُصرّحونَ أنّه خيرٌ لهم ان يَصُمُّوا آذانَهم لنداء التحرُّرِ من أن يقَعُوا بسببه في مثلِ هذه الشدَّةِ. وهذا ما جرى في ذلك الوقتِ، عندما شكَا الإسرائيليّون الجُبناءُ أولئكَ الذين كانوا يَحثُّونهم على التحرُّرِ من عبودِيَّتهم؛ إلاَّ أن هؤلاء لم يكفُّوا عن جرِّ النفوس إلى الخيرِ، حتى وإن تزعزعَ الأطفال روحيًّا وغيرُ الكاملين، ونالهم الجزعُ أمامَ تجاربَ لم يتعوَّدُوها[١٧].

الشيطانُ يَسْعى إلى ان يُلحق أذًى بطبيعتنا ويُحطِّمَها؛ وهو من ثَمَّ يَبْذلُ قُصاراه لكي يمنع مَن هم تحت سيطرتهِ من التطلُّعِ نحو السَّماء، بل يعملُ على جعلهم يَنْحنونَ نحو الأرضِ ليصنعُوا منها لَبِنًا. وكل ما هو من المُتَعِ الماديّةِ انّما هو من تُرابٍ وماء سواءٌ كان من مُتَعِ البطنِ أو ممّا يتعلَّقُ بالثَّراء. ومن مزيجِ هذه العناصرِ يكون الوَحْل، وهي جديرةٌ بهذا الاسم. والذين يطلبونَ بِجَشَعٍ هذه المُتَعَ المعبَّر عنها بالوَحْلِ، لا يجدون معها شِبَعًا، ولا ما يملأُ الحَيّزَ الذي يحتوي تلك المُتَعَ، فما إن يمتلئُ ذلك الحَيّزُ حتى يفرغَ ويعودَ إلى الامتلاء: تلك حالُ صابِّ اللَّبِنِ، فهو لا ينفكُّ، كلّما أفرغَ القالبَ، يصبّ فيه

(١٧) التجارب هي رفيقة الحياة الروحية من بَدْئها حتى ختامها. وقد أثبت ذلك اوريجانس بشدّة.

وحلاً جديدًا. وهذا الرمزُ سهلُ الفهْم عند التفكيرِ في الشَّهوةِ الحسّيّةِ: فاذا نالت رغبةٌ مُشتهاها، تظهر رغبةٌ في مُشتَهى آخرَ كانت بالنسبة إليهِ في فراغٍ، وإذا نالت منهُ وطرَهَا، تصبحُ في فراغ بالنسبةِ إلى غيرهِ، وهكذا دواليكَ في غيرِ توقّفٍ، وذلك ما دُمنا غيرَ مجرَّدينَ من الحياة الماديّة[١٨]. أما بالنسبةِ إلى القَشِّ، والتِّبن الذي يُستخرجُ منه، والذي كانَ على الخاضعِ لأمرِ الطاغيةِ أن يخلطَهُ به، فالإنجيلُ والرسائل بيّنت لنا أن هذا وذاك وَقودٌ للنار (متى ٣ : ١٢) و (١ كور ٣ : ١٢ و ١٣).

ضرَبات مصر

عندما يَسْعى شخصٌ متقدِّم في الفضيلةِ إلى إنقاذِ نُفوسٍ يَسْتعبدُهَا الضَّلال، وإلى تحويلِها إلى حياةٍ مُستقيمةٍ وحُرَّةٍ، يعرفُ صاحبُ المكايدِ (أف ٦ : ١١) الذي يَسْتَنبطُ لنا الأَحابيلَ بدهاءٍ، يعرف كيف يقاومُ ناموسَ الله بالأَكاذيب. أقولُ هذا بالنسبةِ إلى ثعابينِ مصرَ، أي الشرورِ التي يُحْدِثها الكذّاب، والذي تَصْرَعهُ عصَا موسى. وقد تحدَّثنا حديثًا كافيًا عن ذلك؛ فمَنَ يملكْ هذه العصَا التي لا تُغلبُ، أي الفضيلةَ، التي يُلاشي بها عصِيَّ السَّحَرة، مواصلاً سيرَهُ، يَنْتهِ إلى أمورٍ عظيمةٍ ومعجزة. وليس هدفُ هذه المُعجزاتِ ان ترمي الهلعَ

(١٨) الحركة الاستداريّة تميّز الناحية البيولوجيّة في الانسان (الجلابيب الجلديّة). ويعبّر غريغوريوس عن هذه الحركة، في مكان آخر، بالكثيب من الرمل الذي ينهال بقدر ما نحاول تسلُّقه.

على من يُشاهِدُها، بل هدفُها مَنْفَعةُ مَن يجبُ أن يَخلُصوا. فَبالمعجزاتِ التي تجترحُها الفضيلةُ يُغلَب العدوُّ وينشَطُ الصَّديق.

لِنبدأْ بتفُهّمٍ عامٍّ لهدف هذه المعجزاتِ من النَّاحيةِ الروحيّة. وعند ذلك يُصبح في إمكاننا أن نجدَ المعنى الموافقَ والخاصّ لكل واحدةٍ منها. وانه لَمِن الثّابتِ أنَّ تعليمَ الحقيقةِ يختلفُ تقبُّلهُ بٱختلافِ الاستعداداتِ عندَ مُتقبّلي تلك الحقيقة؛ فالكلمةُ تُقدِّم الخيرَ والشرّ لجميع الناسِ في غيرِ تمييز، وهٰذا يستقبلُ ما يُقدَّمُ له باستعدادٍ حسَنٍ، ونفسُه مِن ثَمَّ في النُّورِ، وأمّا ذاك فسَيِّئ الاستعدادٍ، وغيرُ قابلٍ أن يُثبِتَ أنظار نفسه في شُعَاعِ الحقيقةِ، ولِهذا فهو يلبثُ في ظُلمةِ الجهل. وإذ كانَ الأمرُ كذلك لم يبقَ لنا بعدَ الذي عالجناهُ بطريقةٍ عامّةٍ إلاّ أن نُطبِّقَهُ على كل واحدةٍ من المعجزات، وسيكون أيضاً صحيحًا، لأن الجزء قد عولج في الكل.

ليسَ بدعًا أن يظلَّ العِبرانيُّ فاقدَ الشُّعورِ أمامَ الآلامِ التي يُعانيها المصريُّ وإن كان بين ظَهْرانيه. ألا نرى مثلَ ذلك الآن؟ ففي مُدنِنا الكبيرةِ حيثُ تتعدَّدُ المُعتقداتُ يتفجَّرُ الايمان عِندَ هؤلاءِ من يَنبوعِ التعليم الالهي صافيًا وشفّافًا، فيما يقومُ الدَّمُ المسمومُ مقامَ الماءِ عند فاقدِي الأيمانِ الذين يُمثّلهم المصريّون. وكثيرًا ما يقومُ مكرُ أبي الكذِبِ وخداعُهُ بأن يعمل على تحويلِ الماءِ الذي يَشْربهُ العِبرانيّونَ إلى دم، وإفسادِه بالأَضاليلِ، أي بأن يُظهرَ لنا عقيدتَنا على غيرِ حقيقتِها؛ إلاّ أنه لا يستطيعُ تمويهَها تمويهًا كاملاً، فيَكْتفي أحيانًا بتشويهِها بشيءٍ من الضَّلال؛ والعبرانيُّ يشربُ الماءَ الحقيقيَّ من

دون أن يَهتمَّ لهذا التَّشويهِ السَّطحيّ، مهما تغلّفَتْ مكايد العَدُوِّ بظاهرِ الحقيقة[١٩].

من الممكن أن يُقالَ القولُ نفسهُ عن جماعةِ الضّفادعِ القَبيحة والثرثارة. فهذه الحيواناتُ البرمائيّةُ التي تتقدَّمُ وثْبًا، الكريهةُ شكلاً ورائحةً، دخَلت إلى منازلِ المصريّين وغُرَفِهم ومخازنِ مَؤُونتهم، ولكنها لم تَقتربْ من العبرانيّين. هذه الجماعةُ تُمثّل نتائجَ الرَّذيلة الوخيمة التي تنبعثُ من القلبِ الفاسدِ كما من مُستَنْقَعٍ. انها تسكنُ منازلَ مَن اختاروا العيشَ على الطَّريقةِ المصريّة، قافزةً إلى المناضِدِ، مُتسلِّقةً الأسرَّة، مُتسلِّلةً إلى مخازنِ المؤونة. تلك هي حياةُ الفاسقينَ الأنجاسِ: انها تخرجُ مَن وحلٍ مُستنقعٍ، وتملكُ طبيعةً مُزدوجةً، إذْ إنها تسيرُ على خطّة الحيوانات في الحياة؛ وهكذا فهيَ بشريَّةٌ بالولادةِ، وحيوانيّةٌ بالنزعة، ولها خواصُّ مُشوَّشَة، وكأنّها برمائيّة؛ وإنّك لتجدُ أثرَها لا في السَّريرِ فقط، ولكن على المائدةِ أيضاً وفي الأَصْونَةِ، وفي شتّى نواحي الدارِ؛ والإنسانُ الفاسق يتركُ أثرَهُ في كل مكان بحيثُ يسهلُ تمييزهُ من الانسانِ الطَّاهر ولو من طريقةِ تنظيم منزلِهِ. فلدَى هذا تجد على تَخْشِينةِ الجدارِ رسُومًا ومشاهدَ تُثير الشَّهوَةَ الحسيَّة، وتُعيدُ إلى النفس ذكرى عاهتها، وتبعثُ فيها الميلَ إلى الخطيئةِ بلوحاتٍ غيرِ لائقةٍ؛ أمّا الإنسان الطَّاهر فيحرَصُ أشدَّ الحرصِ على صيانةِ عينيهِ من رُؤْيةِ المشاهدِ الشَّهوانيّة. أضف إلى ذلك أَنَّ مائدةَ الانسان المعتدلِ تكون بسيطةَ الطّعام، فيما تكون

(١٩) قد يكون هذا تبريرًا لاعتماد غريغوريوس آراء اوريجانس وان أنكر بعضها.

مائدةُ المتمرِّغ في الوَحْلِ فاحِشةً وفاخِرة. وإذا ما انتقلتَ أخيرًا إلى المَخازِن، أي إلى مناطقِ النَّفسِ السريّة والخفيّة، فانّك ستقعُ هنالك أيضاً، لدى الناسق، على كُوَمٍ من الضَّفادعِ.

عناية إلهيّة وحرّيّة

قد نستغربُ لدى رؤيتِنا التاريخَ يوردُ أن هذه الضرباتِ وقعَتْ على المصريّينَ مِن عصَا الفضيلة. ولكن أَلم يُكتب أن «اللّٰهَ قسَّى قلبَ فِرعون»؟ فكيف يكونُ مُذنبًا إذا كانت قدرةُ العليّ هي التي بعثَتْ فيه هذه الاستعداداتِ العِدائيّةَ الشرّيرة؟ وإلى هذا، أَلم يَتفوّهِ الرّسولُ الإلهيّ بالأُسلوبِ نفسه تقريبًا عندما قالَ: «وإذ لم يهتمُّوا لمعرفةِ الله، أسلمهمُ اللّٰهُ في شهوات قلوبهم إلى النَّجاسةِ» (روم ١ : ٢١ – ٢٤)[٢٠] متكّلمًا على الذين يُخالفونَ الطَّبيعةَ ويتبذّلون بأعمال فسقٍ شائنةٍ. ولكن إذا كان صحيحًا أنّ الكتابَ المقدَّس يتكلّمُ هذا الكلام، وإذا كان اللّٰهُ لا يُسلمُ إلى الأهواءِ الفاسقةِ إلاّ من يسْتَسْلِم لها، فليسَ تصّلُّبُ فرعونَ بإرادةٍ إلهيّة، وليست الحياةُ الخسيسةُ من ثمارِ الفضيلة. فاذا كانت الألوهةُ تستطيعُ أن تريدَ ذلك وتفعَلَهُ، توقّفت الحريّةُ عن أيّ عَمل، وزالَ كلُّ فرقٍ بين الخيرِ والشرّ[٢١]. لا، ليس الأمرُ كذلك، ونحن نرى أُناساً يختارونَ هذه الحياةَ، وآخرينَ يختارونَ

(٢٠) قول التَّوراة بأن «الله قسّى قلب فرعون» كان عقبةً لدى المفسِّرين؛ وقد حمل الأدريّين (الغنوصيّين) على الحطّ من قيمة التوراة الدينيّة؛ أما غريغوريوس، بخلاف اوريجانس، فيرى ان الحريّة هي سبب التصلُّب.

(٢١) الحريّة من القضايا التي لا ينفكّ غريغوريوس يدافع عنها.

أُخرى، ونرى هؤلاءِ يترقَّوْنَ في الفضيلة، وأولئك ينزلِقُونَ في الرَّذيلةً. ومن ثَمَّ فليس من الصَّحيحِ أنْ نعلِّق بقَدَرٍ فائقِ الطّبيعة وقائمٍ بإرادةٍ إلهيّـة، هذه الاختلافاتِ التي هـي، عـندَ كـلِ إنسانٍ، من شأن اختيارِهِ الحرّ. والرَّسولُ يُعلّمنا بوضوحٍ من هم الأُناس الذين أُسْلِموا إلى «رأيٍ مرذول» (روم ١ : ٢٨): إنّهم أولئك الذين لم يهتمُّوا لمعرفةِ الله، والذينَ أسلَمهُم اللّهُ إلى النجاسة، لأنهم لا يعترِفونَ به، ولا ينعَمونَ بحمايتهِ؛ وهكذا فرَفْضُهم لمعرفةِ الله هو سببُ انزلاقهم في حياةِ الفسق والخسَاسة؛ فمثَلُهم مثَلُ انسانٍ لم يرَ حُفرةً، فيقولُ إن الشمسَ هي التي أَسْقطتهُ فيها؛ ونحن لا نستخلصُ من ذلك انَّ الكوكبَ، وقد تعكَّر مِزاجهُ، قد دفَعَ إلى الحفرةِ الانسانَ الذي لم يتبيَّن أينَ يمشي، ولكنّنا سنُضمِّن الأمرَ معنى صحيحًا، ونقولُ إن الحرمانَ من النُّور، عند من لا يَرى، هو سببُ سقوطهِ في الحُفْرة. وهكذا يجبُ أن نفهمَ قولَ الرسولِ، عندما يتكلّمُ على من يَغْفُلونَ عن معرفةِ الله، وأنَّ اللّهَ يُسلمهمُ إلى أهوائهم الفاسدِة، كما يجب ان نفهم تصلّبَ قلبِ فرعون، لا أنَّ الارادةَ الالهيّة تُحدِثُ التّصلُّب في النفس، ولكنَّ الحريَّةَ، بانحرافها إلى الشرِّ، تَصُدّ الكلمةَ التي تعمل على تَلْيينِ مُقاومتها. وهكذا أيضاً تظهرُ عصا الفضيلةِ وتُطهِّر بظهورِها العبرانيَّ من حياةِ النَّجاسةِ، وتبيّنُ أنَّ المصريّ منجرفٌ إليها كُليًّا.

ويحدثُ أيضاً، حتى لدى المصريّينَ، أن تُبادَ الضّفادعُ عندما يمدُّ إليهم موسى يديه، وهذا ما نراه الآنَ أيضاً؛ فالناسُ الذين يتّجهونَ نحو يَدَي المشترعِ المَمْدودتين – وأظن أنكَ تدركُ معنى هذا الرّمز،

وأن المُرادَ بالمشترعِ المشترِعُ الحقيقيّ، وباليدَين الممدودتَيْن ذراعَاهُ المبسوطتانِ على الصَّليب – فهؤلاء، وان لم يَبْرأوا من بعضِ الاستعداداتِ النّجسةِ التي تُمثِّلها الضَّفادعُ، إذا توجّهوا نحو من بسطَ لأجلنا ذراعَيْهِ، تخلّصوا من ضيوفِ الشُّؤم هؤلاءِ بالقضاءِ على تلك الاستعداداتِ. وان الرائحةَ الكريهةَ التي تنشرُها تُمثِّل ما يحصُل للنفوسِ التي تخلَّصت من مثلِ هذه العِلَّة؛ فبعد موتِ هذه الضّفادعِ التي كانت تضطربُ فيها تبدو لها ذِكْرى ماضيها وكأنَّهُ قباحةٌ ونَتْنٌ، فتَمْتلئُ قلوبها النَّادِمةُ اشمئزازًا، على حدّ ما يقولُ الرسولُ مخاطبًا جماعةً من المُهْتَدِين: «أيُّ ثمرٍ حصلَ لكم من تلك الأُمورِ التي تستحيونَ منها الآن» (روم ٦ : ٢١).

وفي المعجزة التالية التي صدرت عن الخشب معنى مماثِلٌ، ففيها نرى الظلامَ يُغطّي أجواءَ المصريّين، فيما تلبثُ تلك الاجواء نَيّرةً بنور الشمس لِلْعبرانيّين؛ بل على هذه المعجزة الاعتمادُ في التفسيرِ الذي قدَّمْناهُ، فليس القدَرُ هو الذي يُغرِق هذا في النور وذاك في الظَّلام، بل نحنُ في داخلنا وبُحرِّيّتِنا سببُ هذا أو ذاك وفقَ اتّجاهِ إرادتِنا. فالذي نَلْمَسهُ في القَصَص هو أنّ ما يوقِف النّورَ ويُغرقُ عيونَ المصريّينَ في الظلام ليس سورًا ولا جبلاً؛ فكلُّ شيءٍ كان مُضاءً ينعمُ بنورِ الشمسِ والمصريُّون لا يُبصرونَ النّورَ، وأما العبرانيّونَ فكانوا يُبصرونَه مُشرِقًا؛ وهكذا فالحياة النّيّرةُ معروضةٌ بالتساوي على حريّةِ الجميع، ولكنَّ هؤلاء يُجرّونَ إلى الظّلمة بأعمالِهم السَّيّئةِ ويسيرون في الظَّلام، وأمّا أولئك فيغمرهُم نورُ الفضيلةِ.

لئِن عادَ المصريّونَ إلى التنعُّم بالنور، بعد ثلاثةِ أيّام من العذاب، فقد يُتيح لنا ذلك أن نُطبّقَه تفسيريًّا على العَفْوِ العامّ الأخير (ἀποκατάστασις)، في ملكوتِ السماواتِ، عن الذين حُكِم عليهم بعذابِ جهنّم[٢٢]. فهذا «الظلام الملموسُ» الذي يتحدَّثُ عنه التاريخُ شديدُ الشّبه لفظاً ومعنى «بالظُّلْمَةِ البَّرانيّة». فهذه وذاك يزولانِ عندما يمدُّ موسى يدَيْهِ للذينَ في الظلمةِ، كما فسّرنا ذلك آنفًا. وانه لمن الممكن ان نُفسِّر التفسيرَ نفسَه «رمادَ الأتّون» (طالع متى ١٣ : ٤٢) الذي صارَ عند المصريّينَ قروحًا وبُثورًا مُؤْلِمةً؛ وهكذا فرمزُ الأتّون يدلُّ بوضوحٍ وصراحةٍ على عذاب النار في جهنّم الذي يُهدّدُ من عاشوا على الطَّريقة المصريّة. والاسرائيليّ الحقيقيُّ، الذي هو ابن ابراهيم والذي يتّجهُ نحوهُ في حياته، بحيثُ يُظهِر بعملهِ الحرّ انتماءَهُ إلى أُسرةِ المختارينَ، هذا الاسرائيليُّ ينجو من عذابِ الأتّون؛ وتجدرُ الإشارة إلى ان الآخرينَ أيضاً، وفاقًا لتفسيرِنا السَّابق، يستطيع موسى بمدِّ يدَيْهِ أن يُخلِّصهم من العقوبةِ ويُبْعدَ عنهم العذاب.

وفي ما يتعلّقُ بالبعوضِ الخفيفِ الذي يُعذّبُ المصريّينَ بلسعهِ الخفيّ، والذّبّانِ التي تُنفِذ خراطِيمَها المؤلمةَ في أجسادهم، والجرادِ الذي يأكلُ المَزروعاتِ، والصّاعقةِ التي تنقضُّ من السماء مع البَرَد، في ما يتعلّق بكل هذه لن يَصعُبَ على أحدٍ ممّن تتبَّع تَفْسِيراتِنا أن

(٢٢) هذا أحد المقاطع التي يعلّم فيها غريغوريوس عقيدة العفو العام (ἀποκατάστασις) أي الخلاص الشامل، بعد إذ قال بها اوريجانس؛ وقد حاول بعضهم ان يحذف هذا المقطع من كتاب غريغوريوس بعدما شجب مجمع القسطنطينية هذه العقيدة، إلاّ أن العلماء أثبتوه له.

يجدَ المعنى الملائم لكلٍّ منها. والمهمُّ أن نُدركَ أنَّ سببَ جميعِ هذه الضَّرباتِ الرَّئيسيَّ هو حرّيّةُ المصريّينَ، وأنَّ التّنفيذَ وحده كان لِعدالةِ الله غيرِ الفاسدة التي تتّفِقُ وهذه الحريّة. فلا يَخْطُرْ لنا على الإطلاقِ، إذا تقيّدنا بحرفيّةِ التاريخ، ان اللّهَ سببُ الآلامِ التي عاناها مَن استحقُّوها، ولكنّ كلَّ واحدٍ هو لنفسهِ سببُ الشقاءِ الذي يُلمُّ به، إذ يَبْذلُ قُصاراه، وبملءِ إرادتهِ، لجرِّ ذلك الشقاءِ عليه، على حدِّ قولِ الرسولِ لإنسانٍ من هذا النوع: «بقساوتكَ وقلبك غيرِ التائبِ تدَّخِرُ لنفسكَ غضبًا ليومِ الغضبِ واعتلانِ دينونة اللّهِ العادلةِ الذي سيكافئُ كلّ واحدٍ بحسب أعماله» (روم ٢ : ٣ – ٦). فكما أنّه، بسبب حياةٍ غيرِ مُعتدلة، تتكوّن في الأحشاء مدَى الحياةِ أخلاطٌ صفراويّة خَطِرة، وأن الطّبيب يستخرجُها بعلاجِ التقيُّؤ، فلا يُتَّهم الطبيب بأنّه أدخلَ في الجسمِ هذه الأخلاطَ المُؤْذية، ولكن الشراهةَ كوَّنتها والطبيبَ أخرجها، هكذا عندما يُقال انَّ اللّهَ شدَّد في عقابِ الذين يُسيئون استعمال حرّيّتهم، فيجب أن ندرك ان مبدأَ هذه الآلام وسبَبها كامِنانِ في ذَواتنا[٢٣]. فالذي عاش بدونِ خطيئةٍ لا يعرفُ الظُّلمةَ، ولا الدُّودَ، ولا جهنّم، ولا النَّار، ولا شيئًا من هذه الحقائقِ الرهيبةِ. والتاريخُ يظهر أنَّ هذه الحقائق لم تنلِ العبرانيّين. فان كان المصريُّ والعبرانيُّ على حالٍ واحدةٍ، وكان المصريُّ فريسةَ الشرّ دون العبرانيّ، كان السببُ في ذلك ما بينَ إرادتَيْهما من اختلاف، وهكذا فما من شرٍّ يحدث بمعزلٍ عن ارادتنا.

---

(٢٣) غريغوريوس شديد الاعتماد على آراء أوريجانس وتفسيراته. (طالع تفسير متى ١٥ : ١١، وجان دانيلو: اوريجانس ص ٢٧٣).

موت الأبكار

لِنَتقدّمْ في تتبُّعِ النصّ، ولنتذكَّرْ ما فسَّرناهُ سابقًا، وكيف أنَّ موسى – ومن جرى مجراهُ في تَوخّي القداسة – عندما تقوَّتْ نفسُهُ بممارسةٍ طويلة لحياة التقشُّفِ السماويّة، وبفعلِ النورِ العلويّ، رأَى مِن الخطأ والتَّقصير أن لا يكونَ هو بدوره قائِدًا لقومِهِ نحو الحريّة. فقد أَتاهم وعملَ على إيقاظِ حبّ الحريّة فيهم بِتَذكيرهم بما يعانُونَهُ من شقاءٍ. وقبلَ أن ينتشلَ ٱبن قومِه من الشقاء ضربَ جميعَ أبكارِ المصريّينَ؛ والمبدأُ الذي يقدّمه لنا بهذا العمل هو أنه يجبُ استئصالُ الشرِّ منذُ ظهورِهِ الأوّلِ، وإلاَّ استحالَ التخلُّص من عبوديّةِ مصر. واني أرى من المُفيدِ ان نتوقّفَ عندَ هذا الحادثِ مفكّرين. فإذا توقّفْنَا عندَ معناهُ الحرفيّ دونَ سِواه كيفَ لنا ان نُفَسِّرهُ تفسيرًا مقبولاً؟ فالمصريُّ هو المُذنِبُ، وابنهُ البكرُ هو المعاقَبُ عوضاً عنه، الطفلُ الذي لا تؤهّلِهُ طفولتهُ يعدُ لِلتّمييز بِينَ الخيرِ والشرِّ، والذي تخلُو حياته من كلِّ ميلٍ شرّير، فالطّفولةُ تجهلُ الشَّهوةَ، ولا تُميِّزُ يمينَها مِن يَسارِها، ولا ترفَعُ عينَيْها إلاّ إلى مُرضِعها، ودموعُها هي وسيلتُها الوحيدةُ للتعبيرِ عن أَلَمِها، وإذا حصَلتْ على شيءٍ تطلبهُ طبيعتُها تطبعُ بهجتَها بابتسامةٍ. وهذا الطفلُ يتحمَّلُ العقوبةَ التي يستحقُّها ذَنبُ والِدَيْهِ! أَينَ العدالة؟ أين التَّقوى؟ أين القَداسة؟ أين صياحُ حِزْقيالَ القائل: «النفسُ التي تخطأُ هي تموت» و «الابنُ لا يحمل إثمَ الأب»؟ (حز ١٨ : ٢٠). فالتاريخ اذن يُناقِض العقل! وهكذا فحقيقٌ بنا أن نتّجه نحو التفسيرِ الرُّوحي، مُقدِّرين أنّ هذه الأحداثَ

أتت رموزًا، وان المشترعَ أراد أن يُقدِّم لنا بها درساً. فما هذا الدرسُ؟ انه يُعلّمنا أنّ من يُعلِنُ الحربَ على مَيْلٍ مُنحرف يجب عليه أن يُوقِفَ الحركاتِ الشّاذّةَ منذُ بدءِ ظهورها؛ فبالقضاءِ عليها من مَبْدئِها يُقضَى أيضاً على ما يَعْقبُها، على حدّ ما علّمنَا الربُّ في الإنجيل، وكأنيّ به يقولُ لنا أن نقتلَ بكرَ المصريّينَ عندما ما يَدْعونا إلى قتلِ الجشَعِ والغضبِ (طالع متى ٥ : ٢٢) لكي لا نخشى السقوطَ في وصمةِ الزّنى والقَتْلِ، وهذانِ لا يحصُلانِ إذا لم يَحْملِ الغضبُ على القتل، والشهوةُ على الزّنى. فاذا كان ما يَشدُّنا إلى الشرِّ يَلِدُ الجشعَ قبلَ الزّنى والغضبَ قبل القتل، فالقضاءُ على البِكرِ يكون أيضاً القضاءَ على الولادةِ التّالية. وتلك الحالُ كحالِ الأفعى، فاذا ضُربت على رَأسِها قُتِل سائرُها الذي يلي الرّأس.

وقتلُ أبكارِ المصريّينَ لم يحدُثْ إلاّ لأنَّ الدَّمَ الذي يصدُّ القاتِلَ الفتّاك كان مُراقًا أمامَ أبوابنا. فما المعنى الروحيُّ الذي تَنطوي عليه هذه الأقوالُ؟ انه المعنى نفسُهُ الذي يجعلُه التّاريخُ في قتلِ الأبكار وفي الحماية التي يؤمّنها الدَّمُ الذي طُلِبَت به الأبوابُ. هنالك قُضي على حركةِ الشرّ الأولى، وهنا نُحِّيت إطلالةُ الشرِّ الأولى علينا بالحَمَلِ الحقيقيّ. وانه لِمَن الثابتِ أنَّ القاتِلَ المُبيدَ، إذا كان في الداخل، لا يُطرد بأيِّ وسيلةٍ، والشريعة تعلّمنا ان نحتاطَ للأمرِ فلا ندَعه يَدْخلُ، وهذا الاحتياطُ يُمثِّلهُ دمُ الحَملِ على عِضادتَي البابِ وعَتبتهِ العُليا.

والكتابُ المقدّسُ يُقدِّمُ لنا بهذه الأمورِ تعليمًا رَمْزيًّا في موضوعِ طبيعةِ النّفسِ التي اكتشفَتْها أيضاً الفلسفةُ الدُّنيويّةُ وقسمَتْها إلى

عاقلةٍ، وشَهوانيّةٍ، وغَضبيّةٍ؛ وهي تقول إن القسمين الأخيرَيْنِ خَاضِعانِ للقسمِ العاقِلِ، يَحْمِلانهِ وهو يُمسكُ بِعِنانِها ويقودُهما؛ أما القوّةُ الغضبيَّةُ فتبعثُ فيه الشّجاعةَ، وأمّا القوّةُ الشَّهوانيّةُ فتنهضُ به إلى الاشتراكِ في صُنعِ الخير، وما دامت النفسُ على هذا الاستعدادِ، والحرَكاتُ الخيّرةُ مسيطرةٌ عليها ومسمَّرةٌ فيها، فهي صَامِدةٌ في مَوْقفِها، وجميعُ قواها تَتَعاونُ في عَملِ الخير، فيتكفَّلُ العقلُ بتوفيرِ السَّلامةِ للقُوى الدُّنيا، وينالُ منها، مقابلَ ذلك، فوائدَ مُعادِلة[٢٤]. ولكن إذا انقلبتِ الحال، وأصبحَ الأدنى أعلى، وتسفَّلَ العقلُ الى ما دونَ القوّتينِ الشَّهوانيّةِ والغضبيّةِ، وذلَّ لهما، تَسلَّلَ المُهْلِكُ إلى الدَّاخلِ، لا يصدُّه الدَّمُ ولا يحولُ دونَ دخولهِ، أي لا يصدُّهُ الإيمان بالمسيحِ وقد خلتِ النفسُ منه وَفقدت مساندَتَهُ لها، فانهارت وسَقَطت[٢٥]. لقد صدرَ الأمرُ بلطخِ عَتَبةِ البابِ العُليا أوّلاً بالدَّمِ، ثم بطَلْيِ العضادَتَيْنِ مِن هُنا وهُناك، فكيفَ يُلْطَخُ ما هو فوقُ إنْ زالَ مِن مكانهِ؟

لقد قرَّبْنا ما بينَ موتِ الأبكارِ وعلامةِ الدَّمِ، وإن لم يتعلَّقا بالإسرائيليّينَ، فلا تَسْتَغْربنَّ الأمْرَ، ولا يحمِلَنْكَ على الشكِّ في حقيقةِ ما قدّمناه من القضاءِ على الحركاتِ الشرّيرة وكأنَّه حدثٌ غريبٌ عن الحقيقةِ. ونحن نفهمُ في الفرقِ بين الاسمينِ إسرائيليّ

(٢٤) في هذا المقطع إشارة إلى أسطورة العربة يقودها العقل ويجرُّها حصانان هما القوَّة الشهوانيّة والقوّة الغضبيّة، ومرجعها إلى أفلاطون. وتشبيه أقسام النفس الثلاثة بعضادتي الباب وعتبته العليا واردٌ عند فيلون وعند اوريجانس.

(٢٥) كان دائمًا اللّطخ بدم الحمَل صورة لختم المعموديّة.

ومصريّ ما نفهمهُ في الفرقِ بينَ الفضيلةِ والرذيلةِ. فاذا قُلنا بأنَّ الإسرائيلـيَّ، بالمعنى الروحيّ، يُمثِّل الفضيلة، فليس من الحقِّ أن يُسعَى إلى الفتكِ بأبنائهِ منذُ ولادتهم، بل أَن يُسْعَى إلى التَّصدّي لنموِّ الأَشْرارِ. وقد علَّمنَا اللّهُ أنَّه لا بُدَّ من قتلِ أبناءِ المصريّين منذ ولادَتِهم حتى إذا حُوربَ الشرُّ من حينِ ظهورِه قُضيَ عليه قضاءً تامًّا. وتفسيرُنا يتّفقُ والمعنى الحرفيّ للرّواية، فأبناءُ الإسرائيلـيّين ينجونَ بعلامةِ الدّم حتى يتحقّق الخيرُ لحقّقًا كاملاً، وأبناءُ المصريّينَ يهلكونَ قبل ان يبلغَ الشرُّ نضجَهُ.

الخروجُ من مصر

ان ما يلي يتّفق وتفسيرنا الروحيَّ؛ فالكتابُ المقدَّسُ يأمرُ بأكلِ لحمِ الحَمَل الذي لُطِخت بدمِه الأبوابُ، وأَبعْدَ مُهلِكَ أبكارِ المصريّين. وهذا الطعامُ يجب أن يُتناوَل بقناعةٍ وسرعةٍ، على خلافِ ما يفعلهُ أَليفُو ملاذِّ المائدة؛ فهؤلاءِ يُطلقونَ أَيديهَم، وأَهدابَ ألبستِهم الفَضْفاضَة، وأقدامَهُم الحافِيةَ؛ أمّا هنا فالأَرْجُل مَحْذُوَّة، والنِّطاق يشدّ الحَقْوينِ ويجمعُ أثناءَ الملابس، وفي اليدِ عصاً تذودُ الكِلاب: هكذا يأكلون الحَمَل. والحَمَل لا يكونُ مُنْضَجًا بماءٍ ولا مُهيّأً بعناية، بل يؤكلُ مَشْويًّا على النار. والمدعوّونَ يأكلونه بِعجَلةٍ، إلى ان يَأْتوا عليه بكاملِهِ. لا يُترَكُ شيءٌ منه على العِظَامِ، أما ما في الجَوْفِ فلا يُمَسّ؛ وأمّا العِظامُ فلا تُكسَر؛ ويُحرقُ ما بقِ منهُ بالنَّار. كلُّ هذا يُظهِرُ أنَّ المعنى الحرفيَّ يجب أن يقودَنا إلى معنى أَرْفعَ، إذْ إنه ليس

من شأن الدّيانةِ أن تُعلِّمنا كيف نأكلُ (فني الطَّبيعةِ الدَّليلُ الكافي وقد جعلَتْ فينا الشَّهوة)، ولكنّها تُعلِّمنا شيئًا آخَر؛ فما يعني الحياةَ الأَخلاقيّةَ ان يُتناوَلَ الطَّعامُ على هذا الشكلِ أو ذاك، وأن يكونَ النِّطاقُ مَشدودًا أو محلولاً، والأَرجلُ حافيةً أو مَحذُوَّة، والأيدي تحملُ أو لا تحملُ عصِيًّا. إنّ المعنى الروحيَّ لأُهْبةِ السَّفرِ هذه هو معنى شفَّافٌ، فهي تُفْهِمُنا بوضوحٍ أَنَّ وجودَنا على هذهِ الأَرضِ ليس سِوى مُرورٍ سريع، فما إن نُولَدُ حتى يدفَعَنا ناموسُ الحياةِ إلى الخروج؛ ومن ثمَّ فلا بُدَّ من إعدادِ أَيْدينا وأَرجلِنا لِلسَّفر. وهكذا فلكي لا تُدمّي أشواكُ هذه الحياةِ أرجُلَنا الحافيةَ وغيرَ المحميَّةِ (وأعني بالأَشواكِ الخطَايا)، يَجِب أن نُغطّيها بأَحذيةٍ، متينةٍ هي رمزُ الحياةِ القاسيةِ والشَّظِفَةِ، فتُحمي من إبَرِ الأَشواكِ وتحولُ دونَ آنْسرابِ الخطيئةِ في شرَايينِنا من مدَخلٍ صغيرٍ وخفيّ. والقميصُ الطَّويلةُ والمُتهدِّلةُ على القدمَيْنِ والمُسترسِلَةُ حتى الأرضِ تَعوق سيرَ من يحثُّ الخُطى في طريقِ القداسةِ؛ وهي، على المُستوى الروحيّ، تعني الآسْترسالَ إلى مُتَعِ الحياة الدُّنيا استراسالاً تَقمَعُه القناعةُ وتُضيِّق مجالَهُ، وفي نِطاقِ المُسافر رمزٌ إلى القناعة؛ والبرهانُ على أنَّ النطاقَ يرمزُ إلى القناعةِ هو أنَّه يشدُّ الحقَويْنِ. وأَمّا العَصا التي تُذادُ بها الوحوشُ المفترسةُ فهي الرجاءُ الذي تَسْتَنِدُ إليه نفسُنا المُتعَبةُ، والذي يُساعِدُنا على طردِ من يتعقَّبُنا بنُباحِهِ.

الطّعامُ المهيَّأُ بالنّارِ يُمثِّلُ الإيمانَ الحارَّ الذي نَغْتذي به في عجَلَة، فنأكلُ كلَّ ما كان في مُتناوَلِنا حتى أصغرَ الأجزاء، ونتركُ كلَّ ما خِفيَ

في أفكارٍ شديدة القَسْوة والصُّعوبة، غيرَ باذلينَ في آستقرائهِ جُهدًا أو فضولاً، فيكونُ طعمةً للنار. ولإيضاح هذه الصُّوَر نقولُ إنّ لبعض التعاليمِ الإلهيّة معنى بَيِّنًا، فيجبُ علينا أن لا نتوانى ولا نتراخى في تَقبُّلها، بل ان نتغذّى ونتشبّعَ ممّا يُقدَّم لنا، وكأنّنا أُناسٌ جياعٌ يحتاجونَ إلى غذاءٍ يُكسِبهم الصحّةَ والعافيةَ؛ وهنالك إلى جانب هذه التعاليمِ الواضحةِ تعاليمُ غامضة كقضّيةِ جوهرِ الله، وما كان قبلَ الخليقةِ، وما يوجدُ وراءَ الظاهراتِ، والضرورةُ القَدَريَّة التي تتحكَّمُ بالأحداثِ، إلى ما شابهَ ذلك من الأُمور التي تعملُ العقولُ الفُضوليّة على اكتناهِها. فلندَعْ للروحِ القدسِ معرفةَ هذه الأمور، هو «الذي يفحصُ كلَّ شيءٍ حتّى أعماق الله» (١ كور ٢ : ١٠) على حدِّ قولِ الرَّسول (ولا أحد مِمَّن يألفونَ الكتابَ المقدّسَ يَجْهلُ أن النارَ كثيرًا ما تُمثِّل فيه الروحَ القدس). واننا نجد الفكرةَ نفسَها في سِفْرِ الحكمةِ، فهو يقول: «لا تصرف همَّك إلى أعمالٍ باطلة»، وبكلامٍ آخر: لا تكسِرْ عظامَ الكتاب المقدَّس، لأن الأمور الخفيّة ليس لك فيها فائدة.

أموال مصر

هكذا أخرجَ موسى الشَّعب. فالكتاب المقدَّس يُرينا كيف ينبغي لكلِّ إنسانٍ يسيرُ في خُطى موسى أن يُحرِّرَ من عبوديّةِ المصريّينَ جميعَ الذين يقودهُم بكلمتهِ. وعلى هؤلاءِ وهم يَتقدّمون في طريق الفضيلةِ، ألاَّ يكونوا مجرَّدينَ من مالِ مصر، ومُتَأَبِّينَ لموارِدِ الغُرَباء، بل عليهم أن يأخذوا كلَّ ما لأعدائهم فيجعلُوهُ في خِدمتِهم. هذا ما

أمرَ موسى الشعبَ بعمله. ومن الواضح أنّ هذا الكلامَ يجب ان لا يُؤخذَ بمعناهُ الحرفيّ، وأن لا يُتَّهم المشترعُ بالتحريضِ على نَهبِ أموالِ الأثرياءِ وعلى ٱرتكاب المظالم. قد يكون التفكيرُ في ذلك تجنّيًا ولاسيّما إذا ترسَّم الانسانُ الشرائعَ التّاليةَ التي لا تني تَنهى عن ظُلمِ القريب. وأَن يُقالَ بانّه رأى من الطبيعيّ ان يعمدَ اليهودُ إلى هذا الأسلوبِ ليعوّضوا ممّا لهم من أجرٍ على أعمالِهم، لا يُزيل الصعوبةَ، إذْ لا يُبرِّئ ذلك أمرَهُ من الكذب والخِداع. فاستعارةُ شيءٍ من الآخرينَ والتمنُّعُ عن ردّه لهم، إذا كان لهم، هو ارتكابُ سَرِقة؛ وإذا كان هذا الشيءُ لك كان هنالِكَ خداعٌ كُذِبَ فيه على المُقْرِض وبُعِثَ فيه أمَلُ أستردادِ مِلْكه.

فجديرٌ بنا إذن أن نُهملَ المعنى الحرفيَّ في سبيل المعنى الرُّوحيّ، وأن مرى في الحادث أمرًا صادرًا عن الكتاب المقدَّس لِمَن حرَّرتْهُم الفضيلةُ، بأن يتزوّدوا أيضاً بغنى الثقافة الدُّنيويّة التي ينعمُ بغناها الوثنيّونَ، من مثلِ الفلسفةِ الأدبيّة، وفلسفةِ الطبيعة، والهندسةِ، وعلم الهيئةِ، والجدَل، وسائر العلوم التي يُعنى بها الوثنيّون؛ فمَرُشِدنا يأمرنا بأن نستلَّها من المصريّينَ الذين يستعملونها لكي نَسْتخدِمَها عند اقتضاءِ الحاجةِ في تزيينِ هيكلِ الوحي بكنوزِ الحكمةِ البشريّةِ. ونحن نرى أن جميع الذين استولَوْا على هذه الغنائِم حملوها إلى موسى عِند تابوتِ الشهادةِ على أنها إسهامٌ في بناءِ المَقادس. ونحن نرى ذلك يتجدّدُ حدوثهُ في أيّامنا هذه، إذ يحملُ الكثيرون إلى كنيسة الله تقدمةَ الثقافةِ الدُّنيويّة، على غرار ما فعلَ باسيليوسُ العظيم، الذي ادّخر في

صباهُ أروعَ كنوزِ مصر، ثم كرّسها لله لكي تُستخدَم في تزيينِ الهيكل الحقيقيّ الذي هو الكنيسة.

عمود الغمام

يجب علينا الرُّجوع إلى حيثُ كنّا. فالنفوسُ التي عكَفَتْ على الفضيلة وانطلقت وراءَ المُشترعِ في منهج حياتها، عندما تجتاز حدودَ مملكةِ مصر، تتعقّبُها تجاربُ تَجلبُ لها المضايقَ والمخاوفَ والأخطارَ المُهلِكة التي تبعث الهلعَ في النفسِ الحديثةِ الإيمان، وتزجّها في يأسٍ مُطبق من إمكانِ الوصول إلى الخير الذي تسعى وراءَه[٢٦]. ولكن فليحضُرْ موسى، أو أحدٌ من الذين وُكلِ إليهم مثله أن يقودوا الشَّعب، فيقاوم بإرشاداتِهِ الاضطراباتِ، ويُنشِّط النفسَ التي يُرهقُها انتظارُ العَوْنِ الإلهيّ. وهذا لا يحصُل إذا كان قلبُ الرئيس لا يكلّمُ الله. وفي الواقع نرى ان الكثيرينَ ممّن بيدهم مثلُ هذه السُّلطةِ لا يَطلبون إلاّ تأمينَ النّظامِ الخارجيَّ، أمّا الأمورُ الخفيّةُ التي لا يراها سوى الله وحده، فلا يُعيرونها أيَّ اهتمام. وموسى لم يكن هكذا. ففيما كان يُنشِّطُ الإسرائيليّينَ، وكأنه لا يتوجّهُ إلى الله بأيّ كلمة، شهدَ الله نفسهُ بأنّ موسى ابتهلَ إليه. والكتابُ المقدّسُ يعلّمنا بذلك، على ما أظنُّ، أنّ الكلمةَ التي ترتفِعُ بنبرَاتِها إلى أُذُني الله، ليست المدوّيةَ الصَّادرةَ عن الجهدِ الصوتيّ، بل تلك التي تصعَدُ من قلبٍ طاهر.

من الواضح أنّ معونة «الأخ» في هذه المرحلة تصبح قليلةَ الفائدة أمام المعاركِ المُتزايدة عددًا وضراوةً، أعني هذا الأخَ الذي

(٢٦) يشير غريغوريوس هنا إلى الموعوظين.

جاءَ، بأمرٍ من الله، لملاقاةِ موسى وهو منحدرٌ إلى مصر، والذي جعلهُ الكتابُ بمرتبةِ ملاك؛ ولكنَّ الذي ظهر هو الكائِنُ الأَسمى، الذي راعى في ظهورهِ مقدرةَ مُشاهِدِه على تقبُّلِ ذلك الظُّهور. وهذا الحادثُ الذي يُوردهُ لنا التاريخ يُمثِّل ما نراه يحدثُ دائمًا في الحياةِ الرُّوحيّةِ. فكلَّ مرّةٍ يَفِرُّ أحدٌ من المصريّ، ويجتازُ الحدودَ، ينتابهُ هلعٌ من مساورةِ التجاربِ له، فيُعَلِّمهُ مرشدُه أن ينتظرَ العونَ من فوقُ عندما يفقدُ كلَّ عونٍ؛ وعندما يُحيق العدوُّ بالفارِّ من كل جهة يُضطرُّ البحرُ أن يفتح له ممرًّا[٢٧]، وتكون الغمامةُ دليلَه في هذا العُبور؛ وهذه اللفظةُ التي تشير إلى الدليل فسَّرها من سبَقَنا بنعمة الروح القدس. وهذا الدليلُ هو الذي يقودُ لأبرارَ إلى الخلاص، ومن تبعَهُ استطاع ان يجتازَ الماء. انه يفتح له ممرًّا ويضمنُ تحريره بالقضاء على مُتَعقِّبيه بالماء.

عبُور البحر الأحمر

كلّ من يسمعُ هذا الأمرَ يدركُ ما سِرُّ الماءِ الذي ننزِلُ فيه مع جيشِ الأعداءِ كله ونخرجُ منه وحدَنا تاركين وراءَنا جيشَ الأَعداء تغمرُه المياه[٢٨]. فمن لا يرى أنّ جيش المصريّينَ بخيله ومركباته ومَن عليها، وبنَبَّالتِهِ ورُماتهِ ومُشاتهِ وسائرِ فِرَقِهِ، يُمثِّل شتّى ميولِ النفس التي

(٢٧) ابرز غريغوريوس المضمون اللاهوتي لأسرار عبور البحر الاحمر: انه عمل خلاص من القدرة الالهية تجاه من كان في حالةٍ مَيْؤوس منها.

(٢٨) عبور البحر الأحمر صورة للمعمودية (طالع بولس ١ كور ١٠ : ٢).

تستعبدُ الإنسان؟ فأيُّ شيءٍ أشدّ شبهًا بهذا الجيشِ من سَوْرات الغضب، وحركاتِ الشَّهوة، والحزنِ أو البخل؟ والشتيمةُ هي في الحقيقة الحجَرُ الذي يُرمى بالمِقْلاع، وسِنانُ السهم المحدَّد والمرتجف ما هو إلاّ اختلاجُ الغضبِ؛ والخيولُ التي تجرّ المركبة باندفاعٍ جامح، يمكنُ إطلاقُها على هوى المُتعة؛ وأمّا الفرسان الثلاثة الذين في المركبة، وهم من النُّخبةِ على حدّ قول التاريخ، والذين انطلقت بهم الخيولُ، فيمكنكَ ان ترى فيهم، وقد وقَفْتَ على المعنى الرمزيّ لعتَبةِ الباب العُليا وعِضادَتَيهِ، تقسيمَ النفس إلى ثلاثةِ أقسام: العاقِلة، والشَّهوانيّة، والغضبيّة. كلُّ هذه الأشياء وكلُّ ما شابهَها نزلَت إلى الماء في عَقِب الإسرائيليّ موضوعِ اندفاعِها السَّاخِط. ولكنَّ الماءَ، بقوّة عصا الإيمانِ والغَمامةِ المضيئةِ، يصبحُ عاملَ حياةٍ للذين يلجأونَ إليه، وعاملَ موتٍ للذين يتعقَّبُونهم.

والتاريخ يُعلّمنا إلى ذلك أنَّه يجب على الذينَ يعبرونَ الماءَ وينجون من الغَرق، أن لا يحملُوا معهم أيَّ شيء من جيشِ العدوّ؛ فالذينَ لا يزالُ العدوّ معهم، عند خروجهم من الماءِ، لا يزالونَ إلى ذلك الحينِ عبيدَهُ: ألم يحتفِظُوا بالطَّاغية معهم حيًّا عوضاً عن أن يُغرقوه في الهاوية؟ وتفسيرُ هذا السرِّ سَيُوضح ما أعنيهِ. فالمعنى هو أنّ جميع الذين يمرّون بماءِ المعموديّة السرّيّ يجبُ عليهم ان يُميتوا في الماءِ جميعَ الرذائلِ التي تُحاربهم، من مثلِ البخلِ، والرَّغباتِ الفاسِقة، وروحِ السَّلب، وعواطفِ الغرور والكبرياءِ، وسَوْراتِ العنفِ، والغضبِ، والحقدِ، والحسدِ، والنَّميمةِ، وسائرِ الأهواء التي ترافِقُ طبيعتَنا،

سواءٌ كان ذلك في جهةِ حركات النفسِ الفاسدة، أو كان في الأعمال التي تصدرُ عنها. ولا يختلفُ ذلك عمّا نجدهُ في سرِّ الفصح – والفصح هو اسمُ الذَّبيحة التي ينجّي دمُها من الموتِ جميعَ من يَستعملونَهُ –، فكما انه في هذا السرّ تأمرُ الشريعةُ بأن يؤكلَ مع الفصح خبزٌ فَطِير – أي غيرُ ممزوج بخمير قديم – وتُشيرُ بذلك إلى ان الحياةَ الجديدةَ تأبَى ان يُمازِجَها شيءٌ من آثارِ الخطيئةِ، وأنّ الانقطاعَ عن عادةِ الخطيئة بالتوبة هو بدايةُ حياةٍ كاملةِ التجدُّد، هكذا لا بُدَّ هنا من دفنِ كلِّ شخص مصريّ، أي كلِّ نوعٍ من أنواع الخطيئة، في جُرنِ الخلاص، كما في مَهْواةٍ، والخروج وحيدًا، خاليًا في الحياةِ من كلّ غريب. وهذا ما يُشير اليه التاريخُ عندما يقول ان في الماءِ نفسِه يختلفُ مصير العدوِّ والصديق، فأحدهما يجدُ الحياةَ، والآخر يجدُ الموت.

كثيرونَ ممّن تقبّلوا سرَّ المعموديّة، وهم يجهلون وصايا الشَّريعة، يمزجون خمير الخطيئةِ القديم بحياتهم الجديدة، وحتى بعد عبورِ الماء، يحملونَ معهم، في أعمالهم، الجيشَ المصريَّ حيًّا. وهكذا مَن، قَبْلَ تقبُّلِ نعمةِ المعموديّة، أَثرى بالسّلبِ، أو الظُّلم، أو آقتنى مُقتنًى بقسَمٍ كاذب، أو ساكنَ إحدى النساء على وجهٍ غيرِ شرعيّ، أو قادهُ الجنونُ إلى القيامِ بعملٍ محظور، أيظنّ انه تخلّص من عبوديّةِ الخطيئة إذا ظلَّ مقيمًا، بعد تعمُّدهِ، على التمتُّع بما يمتلكهُ ظُلمًا؟ ألا يدركُ انه باقٍ تحت نيرِ طُغاتهِ؛ فالفِسقُ ربٌّ ظالم ورهيب، يُحرّك النفسَ التي استَخْزَت له بالملذّات وكأنها أسواط. وهنالك طاغيةٌ آخر من النَّوعِ

نفسِه هو البخلُ، فلا يدَعُ عبدَهُ يذوقُ الرَّاحةَ، ومهما كدّ هذا العبدُ في طاعةِ سيّدِهِ، تَشدُّه رغبةُ الكسْبِ إلى أبعدَ فأبعد. وتعدادُ جميع الميول الأُخرى الفاسدةِ هو تعدادٌ لأسيادٍ آخرين ظالمين، إن أُطيعوا، حتى بعدَ المرورِ بالماء، فكأن من أطاعهم، في رأيي، لم يمسَّهُ الماءُ السرّيُّ الذي من شأنه ان يُبيد طُغيانَ الشرّ.

المراحِلُ في البرّيَّة

لِنَعُدْ إلى نصِّ الكتاب المقدَّس وَلْنَتقدَّمْ إلى الأمام. فمن عبرَ البحر، بالمعنى الذي جعَلناهُ في هذا العبورِ، وشاهدَ هلاكَ المصريّ فيهِ، لا يرى بعدُ موسى وحْدَهُ سائرًا أمامَهُ بعصاه، ولكنه «يجعل أولاً في اللهِ ثِقتَه»، على حدِّ قول الكتاب، ويُطيعُ موسى كما يُطيعُ خادِمَهُ. ونحن نرى أنّ الأمرَ نفسَهُ يجري للذين عبَرُوا الماءَ عبورًا حقيقيًّا؛ فقد كرَّسوا أَنْفُسهم لله، وأطاعُوا طاعةَ خضوعٍ، اولئك الذين أُوكِل إليهم، بالكهنوتِ، الاهتمامُ بأمور الله (طالع عب ١٣ : ١٧) على حدّ قولِ الرسول. وبعدَ عبور البحر سارَ العبرانيّون ثلاثةَ أيامٍ فأفضوا إلى مكانٍ فيه ماءٌ لم يُطيقوا أن يَشربوا منه لأنه مُرٌّ، ولكنَّ موسى ألقى فيه عودًا فصارَ عذبًا واستطاعوا أن يرووا عطشَهم. والمعنى الحرفيّ يُطابق الحقائق الروحيّة؛ فمن تخلّى عن ملذّاتِ مصر التي كان لها عبدًا، قبل عبورِهِ البحر، يجدُ الحياة، في اول الأمر، شاقّة وكريهة، لحرمانهِ ممّا كان يتمتّع به قبلاً من ملذّات؛ ولكن إذا أُلقِي العُودُ في الماء، أي إذا لجأ الإنسانُ إلى سرِّ القيامَةِ الذي قام على العود – ولا شك في انّك

أدركتَ ان العُودَ هو الصلَّيب – عند ذلك تصبحُ حياةُ الفضيلة أكثرَ عذوبةً وأشدَّ طراوةً من أيّ عذوبةٍ أُخرى تدغدغُ الحواسّ، وعذوبةُ الفضيلةِ هذه مُستقاةٌ من رجاءِ الخيرات الآتية.

والمرحلةُ التاليةُ من السَّفر غسَلت بِنخِيلِها وينابيعها تعبَ المُسافرين. وكانت الينابيعُ آثنَي عشرَ وماؤُها صافيًا وزُلالاً؛ وكانت النخلات سبعين، وقد نمَتْ مع الأيّامِ نموًّا عظيمًا، حتى لامست أغصانُها السَّماءَ. فماذا نكتشفُ في هذه الأمور، ونحن نتتبّعُ سياقَ القَصَص؟ اننا نكتشفُ أنّ سرّ العُودِ، الذي يُحلّي ماءَ الفضيلة ويجعلُه صالحًا للشرب، يقودُنا إلى الينابيعِ الاثنَي عشر، وإلى النخَّلاتِ السبعينَ، أي إلى مدرسة الإنجيل. فالينابيعُ الاثنا عَشَر هي الرُّسُل الاثنا عشرَ الذين اختارهم الربُّ بهذا العددِ لهذه الرسالة، والذين يُفجّرُ بهم كلمتَهُ، وقد بشرّ أحدُ الأنبياء سابقًا بأنّ النعمةَ ستتفجّر بوساطةِ الرّسُل قائلاً: «في الجماعاتِ باركُوا الله، الربّ الذي يُفجّر ينابيعَ إسرائيل» (مز ٦٧ : ٢٧). وأما النخلات السبعون فهي الرُّسُل السبعون، غير التلاميذ الاثنَي عشر، الذين أُرسلوا إلى شتّى أنحاء الأرض، وكانوا بعددِ نخلات التاريخ[٢٩].

أظنّ انه ينبغي لنا ان نحثّ الخُطى في ما نعرضُه، مُقدِّمينَ لمن يُريدون التعّمق في التفسيرِ الروحيّ لسائر المراحل، بعضَ الارشادات التي تُسهِّلُ لهم العملَ. فهذه المراحلُ تمثِّل الفضائلَ، حيث يُخيّمُ ويستريحُ من يتبعُ عمودَ الغمام، كلّما تقدّم في مسيرته. وانّي، وان

(٢٩) في كلام غريغوريوس دُعي الاثنا عشر تلاميذَ، والسّبعون رُسُلاً.

أغفلتُ مراحِلَ الوسَط، أتوقّف فقط عندَ مُعجزةِ الصّخرةِ الصُّلبةِ في طبيعتِها، والتي تحوَّلَتْ إلى شرابٍ يُهدِّئ العطشَ، وذابت قَسْوَتُها ماءً. هذا المَقْطعُ يُفهَم، في غيرِ صعوبةٍ، بالمعنى الرُّوحيّ. فبعد قضاءِ النفسِ على المصريّ في الماء، ورؤيتها العودَ يُحلّي الينبوعَ، وبعدَ ورودِها العذبَ والهنيءَ للينابيعِ الرَّسوليّةِ، وإخلادِها إلى الراحة في ظلِّ النُّخيل، تصبحُ أهلاً للّهِ؛ والصخرةُ، على حدِ قولِ الرَّسولِ، هي المسيحُ (١ كور ١٠ : ٤)، تكونُ صلبةً لغير المؤمنين، وتُصبحُ، كلّما اقتربَ منها عُودُ الايمان، شرابًا يُروي، وينتشرُ في داخلِ من ينفتحُ للمسيح، وهو يقول: «انا والآبُ نأتي إليه وعندَهُ نجعلُ مقامَنا» (يو ١٤ : ٢٣).

المَنّ

وهوذا أمرٌ آخر جديرٌ بأن نتوقّفَ عنده مُتَأَمِّلين؛ فبعدَ عبورِ البحر، وبعد مُشاهدةِ الماءِ يَحْلو في أثناءِ هذه الرحلةِ التي تُمثِّلُ مسيرةَ النموِّ في الفضيلةِ، وبعدَ الإقامةِ الطيّبةِ حيثُ عيونُ الماءِ والنّخيلُ، وبعد إرواءِ العطش من الصَّخرةِ، يجدُ العبرانيّونَ أنَّ زادهم الذي حمَلُوهُ من مصر قد نَفد؛ وفي هذه الحالِ، وقد افتقدُوا كلَّ طعامٍ غريب ممّا تزوَّدوه وحمَلُوهُ من مصر، هبطَ عليهم طعامٌ من السّماءِ هو واحِدٌ ومُتنوِّع معًا، واحدٌ في ظاهِرِهِ، ومتنوّعٌ في صفاتِه، وكلُّ إنسانٍ يجد في طَعْمِهِ ما تَطلبُ نفسُه. فأيُّ درسٍ يلقيه علينا هذا الحادثُ؟ انه يُبيِّن لنا كم يجبُ على الإنسانِ ان يتطهَّرَ من الحياةِ المصريّةِ

والغريبة، ويُفرغَ مِزودَ النفسِ من كلِّ طعامٍ دَنِسٍ، من صُنعِ المصريّينَ، ويتقبَّلَ بنفسٍ طاهرة الطّعامَ النازلَ من السّماءِ. وليس هذا الطّعامُ من صُنع الأَرض بذارًا ونموًّا، ولكنَّهُ خبزٌ مُعَدٌّ بدونِ بَذرٍ ولا حِرَاثة: إنهُ يسقط من السماء ويتجمّع على الأرضِ؛ وأنتَ تُدرك إلى أيّ غذاءٍ حقيقيٍّ يرمز هذا الحادث. ليس هذا الخبزُ النازلُ من السَّماء شيئًا غيرَ جسمانيٍّ، إذ كيفَ يصيرُ غير الجسماني غذاءً لِجَسدنا؟ وما ليسَ غيرُ جسماني هو بالضرورةِ جِسْمَ. ولكن المادّةَ التي صُنع منها هذا الخبزُ ليست ثمرةَ بَذْرٍ وحِراثة، فقد ظلّت الأَرْضُ على ما هي عندما غَطَّاها هذا الطعامُ الإلهيُّ الذي يتناوله جميعُ من بهم جوع. انه سرُّ الميلادِ البَتوليّ تسبقُ هذه المعجزةُ وتُعلِّمُناهُ. فهذا الخبزُ الذي ليسَ من صُنعِ الأرضِ هو الكلمة؛ وهو يُطبّقُ قوّته على استعداداتِ الذين يتناولونَهُ لأنه متنوّعُ الصّفات والطّاقات. فبإمكانه، لا أن يكون خبزًا وحسبُ، بل أن يصيرَ أيضاً لحمًا، وبقولاً، وكل ما يُلائِم ذَوْقَ من يتناولُونه (طالع حك ١٦ : ٢٠). هذا ما يُعلِّمناهُ بولسُ، الرسولُ الإلهيّ، الذي يقدّم لنا في أعمالِهِ غذاءٍ فريسدًا، جاعلاً من كلمتهِ لحمًا قويًّا للكاملينَ، وبُقولاً للضُّعفاء، ولبنًا للذين لا يزالون أطفالاً (طالع عب ٥ : ١٢ – ١٤، وروم ١٤ : ١ – ٢).

كلُّ ما يورده لنا التاريخُ عن هذا الطَّعامِ هو في الحقيقةِ درسٌ في الحياةِ الرُّوحيّة. وهكذا فكلُّ واحدٍ يستطيعُ أَن يأخذَ من هذا المنِّ المقدارَ الذي يُريدُ، ومع ذلك فالاختلافُ في الطاقات عِندَ مَن يلتقطونَ لا يَجرُّ زيادةً على الحاجةِ أو نقصاً منها. وأَنا أَرى أنّ في الأمر

نصيحةً مقدَّمةً على وجهٍ عامّ لجميعِ الذين يستخرجونَ قُوتَهم مِن المادَّة، بأن لا يتخطَّوا حدودَ حاجاتِهم، وأن يَعْلموا بأنَّ المعيارَ واحدٌ للجميعِ، في استعمال الأَطْعِمة، وهو الكفافُ اليوميّ. فان تطلَّبتَ أكثرَ ممّا تَقْتضي حاجتُكَ فجوفُك ليس مُستعدًّا لتجاوزِ مَقاييسهِ الخاصّة، وللتمدُّدِ مع التزيُّدِ في الأطعمة. وهكذا، على حدِّ قول التَّاريخ، فمن أكثرَ لم يُفِدْ من إكثارِهِ لافتقارِهِ إلى مكانٍ يخزنُ فيه الفَضْلة، ومَن أَقلَّ لم يكن في إقلالهِ حِرمانٌ، لان ما نالَهُ هو على مقدار حاجتهِ. ونحن نرى أنَّ الذي حمله الجشَعُ على الاحتفاظ بالفَضْلةِ كان نصيبُ ما احتفظَ به الفسادَ والنُّتُونة؛ وكأنّي بالكتابِ المقدس يَصيحُ في وجه الطَّامِعين الجَشِعين بأنَّ كلَّ ما يجمعونَهُ فوقَ حاجتهم، ويختزنُونَهُ للغد، أي للأيّامِ الآتيةِ من الحياة، يفسُدُ ويتحوّل لديهم إلى دُودٍ، والذي يقرأُني يفهمُ بسهولةٍ ان هذا الدُّودَ يدلّ على الدُّودِ الذي لا نهايةَ له والذي يلِدُهُ الجشعُ.

ما كان يُحفَظُ للسبت كان ينجو من الفسَاد. وفي هذا ما يُرشِدُ إلى الاكثار من اقتناءِ الاشياءِ التي لا يَفْسُدُ ما يُقتَنى منها، فإنها ستكونُ لنا ذاتَ فائدةٍ عندما نبلغ نهايةَ حياةِ التَّهْيئةِ هذه، ونكون، بعد الموت، غيرَ قادرينَ على الاقتِناء؛ فالْيومُ الذي يسبقُ السبتَ هو، كما يُدلُّ على ذلك اسمُهُ، تَهْيِئَةُ السَّبت؛ وهذه التّهيئةُ هي الحياةُ الحاضرةُ، التي نُعدّ لنا فيها خيراتِ الحياةِ الآتية، تلك الحياةِ التي لا يُمارَس فيها أيُّ نشاطٍ من نشاطاتِ الزِّراعةِ والتّجارةِ والحياةِ العسكريّةِ وما إلى ذلك ممّا يُتاحُ لنا مُمارَستُه الآن، والتي سنعيشُ فيها

خالين من كلِّ نشاطٍ، نجني ثمارَ البذارِ التي بذرناها في حياتنا هذه، ثمارًا لا تقبلُ الفساد إذا كانت بذارُ الحياة صالحة؛ وثمارًا سريعةَ الفسادِ وزَريّةً إذا كانت هكذا ثمارُ أعمالِنا في هذه الحياةِ. والكتابُ المقدّسُ يقول: «الذي يَزْرعُ في الروح فمن الروحِ يَحصدُ الحياةَ الأبديّة، والذي يزرعُ في الجسدِ فمن الجسدِ يَحصدُ الفسادَ» (غلا ٦ : ٨). ولكنَّ إعدادَ ما هو صالحٌ هو وحده يُسمّى تهيئةً، وهو وحدَهُ مَعْدودٌ هكذا في الشرِّيعةِ اذ إنّها تحفظُ الخيراتِ التي لا تقبلُ الفساد؛ وما خالفَ ذلك ليسَ له من التَّهيئةِ لا الحقيقةُ ولا الاسم. فليس يستحقّ اسمَ تَهْيئةٍ ما يقودُ إلى فِقْدانِ الخيراتِ، بل يستحق اسمَ عدَمِ التَّهيئة؛ ولهذا فالتاريخُ يأمر البشرَ بالتَّهيئةِ فقط، تلك التهيئةِ القائمةِ بالأعمالِ الصّالحةِ، مُشيرًا بصمتهِ إلى الأُخرى التي من شأنِ ذوي الإدراكِ أنْ يُدركوها.

ولا تَخْتلِفُ الحالُ هنا عن حالِ الجُنديّةِ، فقائدُ الجيش يبدأ بتوزيعِ المُرَتَّبات، ثم يُعطي إشارةَ الحرب؛ والجنودُ الذين ٱلتزَموا القتالَ لأجلِ الفضيلةِ ينالُون أوّلاً أَعْطِياتهم الروحيّةَ، ثم يُهاجمُونَ الغُرباءَ بقيادةِ يشوعَ خليفةِ موسى.

المعنى الكتابيّ

هل ترى ما مُؤَدَّى الفِكرة؟ فما دام الإنسانُ شديدَ الضّعفِ، يُرهقهُ طغيانُ الشرِّيرِ، فهو لا يملكُ في نفسهِ ما يَرْدَعُ به العدوَّ. إنه عاجزٌ عن ذلك؛ ولكنَّ هناك آخَرَ يُقاتِلُ عن الضُّعفاءِ، ويَردُّ إلى العدوّ

ضرباتهِ. وانه متى تحرَّرَ من عبوديّة الطّغاةِ، وعرفَ عذوبةَ العُودِ، واستراحَ إلى جانبِ النخيلِ، وخَبَرَ سرَّ الصَّخرةِ، واشتركَ في خبزِ السَّماءِ، عند ذلك يردّ العدوّ بغيرِ يدٍ غريبة؛ وكرجلٍ خرجَ من مرحلةِ الصِّبا وبلغ النُّضج، يُباشرُ هو بنفسهِ القتالَ، لا بإمْرةِ موسى، «خادمِ الله»، بل بإمرة اللهِ نفسِه الذي كان موسى خادمَهُ. والناموسُ الذي أُعطيَ منذُ البدءِ كظلٍّ وصورةٍ لما سَيَأْتي، يظلُّ غيرَ صالحٍ للمعاركِ الحقيقيّة (طالع عب ٨ : ٥). وقائدُ الجيشِ هو الذي «يُتمِّمُ الناموس»؛ وهو الذي بُشِّر به من قبلُ وكان مشتركًا في الاسمِ مع خليفةِ موسى الذي كانَ على رأسِ جيشِ اسرائيل[٣٠]. وكان إذا رأى الشعبُ يدَي المشترعِ مرتفعتَيْنِ يتغلَّبُ على العدوِّ في القتالِ؛ واذا رآهما مُنْحطَّتينِ يتغلّبُ العدوّ. ورَفْعُ يَدَيْ موسى إلى السَّماء يعني فهمَ الشريعة فهمًا روحيًّا، وانحدارُهما نحوَ الأرض يعني تفْسيرَها تفسيرًا ماديًّا وحرفيًّا. والكاهنُ يُسند يَدَي موسى المُثقلتَيْنِ، يُساعده في ذلك أحدُ أفرادِ قومهِ. وهذا أيضاً لا يخلو من معنى روحيّ؛ فالكهنوتُ الحقيقيُّ، بفضلِ الكلمة الالهيّ المتّحِد بهِ، يرفعُ إلى السَّماءِ طاقاتِ الشريعة التي انحدرَتْ إلى الأرضِ تحت وطأةِ التَّفْسيرِ اليهوديّ؛ وهو يُسْند بالحَجرِ الشَّريعةَ إذا انحطّت، بحيثُ انها، وهي مرتفعة، تُظهِرُ حقيقةَ موضوعِها للذين ينظرون إليها في الصُّورةِ التي ترسمها اليدانِ المبسوطتانِ. وهكذا فمن أحسنَ النظرَ يرى ان سرَّ الصَّليب يظهرب في كل مكانٍ من الشَّريعة[٣١]. ولهذا يقولُ الإنجيلُ في مكانٍ ما أن «لا

(٣٠) الاسم واحد عند يشوع ويسوع.

(٣١) يشير غريغوريوس بصورٍ متعدّدة إلى الصليب: عصا موسى، يدا موسى

تزولُ ياءٌ أو نقطةٌ واحدة من الناموس» (متى ٥ : ١٨). فهو يشيرُ إلى الخطِّ العموديّ والخطّ الأفقي اللذَيْن بتلاقيهما يَرْسمانِ صورةَ الصّليب[٣٢]. وهذه العلامةُ التي رأيناها في موسى هي صورةُ الناموسِ تَنْتصبُ كعَلمٍ وتُخوِّل النَّصرَ لمن يتأمَّلُها.

جبل المعرفة اللاهوتيّة

فيما نواصلُ التَّصعيدَ يقود نصُّ الكتاب نفوسَنا إلى درجاتٍ أَعلى في سُلّمِ الفَضيلة. والذي نشّطهُ الطّعامُ وأظهر قوّةً في قتالِ الاعداءِ، وانتصرَ عليهم، هذا الإنسانُ يَنتقل إلى المعرفة اللاهوتيّة التي لا تُوصفُ. والكلمةُ يعلّمنا بذلك كله كم يجدرُ بنا ان نقومَ به من أعمالٍ متعدّدةٍ ومختلفةٍ قبل التجرُّؤِ على الاقتراب بالروح من جبلِ المعرفةِ اللاهوتيّة، وسماعِ صوتِ الأبواق، والدخولِ في الظُّلمةِ التي يُقيمُ فيها الله، ثم تقبُّلِ اللوحينِ اللذينِ نُقِشت عليهما الحروفُ الإلهيّة، وإن حُطِّما لإثمٍ ارتُكِب، تقديمِ لوحَيْنِ جديدَيْنِ لله، نُحِتا لكي ينقشَ عليهما بإصبَعِهِ الحروفَ التي ذهبت بذهابِ اللوحَيْنِ السَّابقين.

ومن الأفضلِ، ونحن نتتبّعُ قَصَصَ الكتاب، ان نُبرزَ معناه الروحيّ. فلنعُدْ إلى تسلسُلهِ. لقد تبِعتِ النفسُ موسى والغمامةَ اللذين كانا دليلَيْنِ للمتقدِّمِ في طريقِ الفضيلة، موسى على أنه وصايَا الشَّريعة، والغمامة على أنّها تفسيرُها الروحيّ. وقد طُهِّرت النفسُ

المبسوطتان، الكرمة المعلَّقة...

(٣٢) باجتماع الـ ιοτα والـ απε يحصل رسم T وهو رسم الصليب.

بعبورِ الماء؛ وأبعدتْ عنها كلَّ عنصرٍ غريب وحَطّمته؛ وذاقت ماءً مارَّةً، أي الحياةِ الخالية من كل ملذّةٍ حسيّةٍ، والتي تبدو لأوّلِ وهلةٍ مُرّةً وكريهةً في فمِ من يذوقها، ثم تصبحُ عذبةً في الحواسِّ الروحانيّةِ عند من تقبَّلوا الصَّليبَ برضى. وقد تمتّعتِ النفسُ بجمالِ النخيل وبالينابيعِ الإنجيليّة؛ وأروت عطشَها بـ «الماءِ الحيّ» أي ماءِ الصخرة؛ وتقبّلت «خبزَ السماء»؛ وتغلّبت على الغرباءِ، بفضل يدَي المشترعِ المَبْسوطتَينِ، اللتينِ تُمثّلان سرَّ الصّليب. وفي هذه الحالة فقط دخلَت في تأمّلِ الكائنِ الأسمى.

انّ الطريقَ التي تقودُها إلى هذه المعرفةِ هي طريقُ الطَّهارة، لا طهارةِ الجسدِ وحسبُ مُقدَّساً بالنَّضْحِ والرشِّ، بل طهارةِ الملابس أيضاً بغسلِها وإزالة البقَع عنها. وهذا يَعني ان النفسَ التي تُزمِعُ ان تقترب من تأمُّلِ الحقائقِ يجب عليها ان تتطهَّرَ تطهُّرًا كاملاً، وأن تُزيلَ أيضاً أدرانَ النفسِ والجسدِ، لكي تكونَ خاليةً من كلّ دنَسٍ. ولكي نكونَ أطهارًا في عينَي «من يَسْبرُ الأعماقَ» يجب ان يتّفق سلوكُنا الخارجيُّ وحالةَ نفسِنا الداخليّة. ولهذا يأمرُ اللّهُ بغسلِ الثيابِ قبلَ الأخذِ في صعود الجبل، وفي الثياب إشارة إلى لياقةِ الحياةِ الخارجيَّة؛ إذ لا يدخُلْ في وهمِ أحد أن تحولَ بقعةٌ على الثياب دون الصعودِ نحو الله؛ وأنا أرى أن المُرادَ بالثّوب هنا مهامُّ الحياةِ الخارجيّة.

وبعد إذ نُحيّت قطعانُ المواشي وأُبعدَتْ عن الجبلِ، راحتِ النفسُ تتسلَّقُ المقامات العُليا. ومَنْعُ الحيواناتِ من الظّهورِ في الجبلِ يعني، في رأينا، التَّسامي في تأمُّلِ الحقائقِ بالنسبة إلى كلِّ معرفةٍ

حسيّة؛ ففي طبيعةِ الحيواناتِ ان يقودَها الإحْسَاس، دونَ العقل؛ يقودُها النظرُ، ويوجّهُ السّمعُ غريزتها إلى حيثُ تريد؛ وهكذا فللإحساسِ عندها محلٌّ واسعٌ. أمّا تأمُّل الله فلا يُمارَس في نِطاق النَّظرِ، ولا في نطاق السَّمع، وهو أرفعُ من أن ينالَهُ عملُ العقلِ العاديّ. وهكذا «فالعينُ لم ترَ، والأُذنُ لم تسمعْ، وهو من غيرِ الأفكارِ التي تخطرُ عادةً على قلب البشر» (١ كور ٢ : ٩). فلا بُدَّ لمن يتطلَّعُ إلى معرفةِ الأُمورِ العُليا من أن يبدأَ بتطهيرِ سلوكهِ من كلِّ حركةٍ حسيّةٍ حيوانيّة. وبعدَ غسلِ عقلهِ من كلِّ ذهنيَّةٍ حسيّةٍ، وابتعادِهِ عن كل علاقةٍ عاديّةٍ مع زوجتهِ، أي عن الحساسيّة التي تُرافق طبيعتَنا، وبعد تطهّرهِ منها، يستطيعُ أن يأخذَ في الصُّعود.

إنه لَجبلٌ وعرٌ وصَعبُ المسالك، جبلُ معرفةِ اللّهِ اللاهوتيّة. والجماهيرُ تكادُ تعجزُ عن الوصولِ إلى حَضيضه. ولكن إذا كانَ الأمرُ متعلّقًا بإنسانٍ كموسى فهو يُصعِّدُ، وفي تصعيدهِ يسمعُ صوتَ الأبواق، وكلّما تقدّمَ ازدادَ صوتُها اشتدادًا، على حدِّ قول الكتاب. والبوقُ الحقيقيّ الذي يَطرقُ الأُذنَ هو كِرازَةُ الأُلوهةِ الشديدةُ النَّبرة، والتي تزدادُ اشتدادًا وتقرعُ الآذان أكثرَ فأكثرَ في الأيّام الأخيرة. والناموسُ والأنبياءُ أعلنوا سِرَّ التجسُّدِ، ولكن هذه الأصواتَ الأولى كانت ضعيفةً إلى حدِّ أنّها لم تدخُلِ الآذانَ المُتصامَّةَ؛ واليهود، وقد قَسَت آذانُهم، لم يسمعوا صوتَ الأبواق. ولكنَّ «صوتَ البوقِ»، على حدِّ قول الكتاب، «كان يزدادُ اشتدادًا». والأصواتُ الأخيرةُ، التي تُمثِّل كرازةَ الإنجيل، قد

قرعتِ الآذانَ. انه الروحُ القدسُ، بصوتِ الآلاتِ، كان يُلَعْلِعُ على وجهٍ مُبينٍ، ويُؤدّي صوتًا أشدَّ دقّةً ووضوحًا؛ أمّا الآلاتُ فهي الأنبياءُ والرُّسلُ الذين بَشّروا بدعمٍ من الروح القدس، والذين قيل عنهم في المزامير «في الأرضِ كلها ذاعَ منطقهُم وفي أقاصي المسكونةِ كلامُهم» (مز ١٨ : ٥).

لئن كان الشعبُ غيرَ قادرٍ على سماعِ الصوت الذي يأتي من العَلاء، وإن أوكلَ إلى موسى ان يتلقّى بنفسه معرفةَ الأسرارِ الخفيّة وينقلَ إليه بعد ذلك التّعاليمَ التي لقّنه إيّاها المعلّمُ السّامي، ففي الكنيسةِ وتدبيرها شيءٌ مُماثِل: لا يسعى الجميعُ إلى اختراقِ مكامنِ الأسرارِ والوقوفِ على حقيقتِها، ولكنهم يختارُون واحدًا منهم قادِرًا على تلمُّس الأمُورِ الإلهيّةِ، فيُنصتون إليه بعدَ ذلك، مُصَدِّقين كلَّ ما يسمعونَهُ منه على أنه تلقّى معرفةَ الأسرار الإلهيّة؛ «فليس الجميعُ رسلاً، يقول بولسُ، ولا الجميعُ أنبياءَ» (١ كور ١٢ : ٢٩). وهذا الامرُ لم يَعُدْ جاريًا اليوم في كثيرٍ من الكنائس. فكثيرونَ مِمَّن لا يزالونَ بحاجةٍ إلى تطهُّرٍ من أعمالهم السَّابقة، ومَن لا تزالُ حياتهم مدنّسةً بالبُقع كالثوب الذي لم يُغسَلْ بعدُ، يتجرَّأون على الصُّعودِ نحو الله، وليس لهم إلاّ معرفتُهم الحسّيّة يَحْتمون بها. فينالُهم الرَّجْمُ من أفكارِهم نفسها، إذ إن آراءَ الهراطقةِ حجارةٌ على رؤوسِ مُبْتَدعيها.

الظُّلمة

ولكن ما معنى دخولِ موسى في الظَّلام ورُؤيًا الله التي رآه فيه؟ فكأنّي بهذا النصّ يناقضُ بعضَ المناقَضةِ نص التجلّي السَّابق، حيثُ تجلّى الله في النّورِ فيما نراهُ هنا يتجلّى في الظُّلمة. فلا نحسبنَّ

أن هذا يخالفُ التَّسَلْسلَ الطبيعيَّ للحقائقِ الروحيّة التي نُعالجها. فالكتاب يُعلِّمنا بذلك ان المعرفةَ الدِّينيّةَ (الأدريّة) هي في بدء أمرها نورٌ، تُقاومُ به الكفْرَ الذي هو ظلمةٌ، والظّلماتُ تندحرُ أمام النور. ولكن بمقدارِ ما تتقدَّمُ النفس في مسيرتها، وتبذلُ من جهدٍ حثيثٍ ومتواصل، وتصلُ إلى تفهّمِ ما هي معرفةُ الحقائق، وتقتربُ أكثر فأكثرَ من التأمُّل، بمقدارِ ذلك ترى أن الطبيعةَ الإلهيّةَ غيرُ مرئيّة[٣٣]. فبعدما يتخلَّى الإنسانُ عن جميع الظاهراتِ، لا ما تدركهُ الحواسُّ فقط، بل ما يَظنُّ العقلُ أنّه يراه أيضاً[٣٤]، يمضي إلى الأمامِ في الدَّاخلِ إلى ان يخترقَ، بجهدٍ من الروح، جميعَ الحجبِ، ويصلَ إلى غير المرئيّ وغير المُدرك، فيرَى الله. وتقومُ معرفةُ من يطلبه الانسان ورؤيتهُ الحقيقيّتان بأَن يرى أَنه غيرُ مرئيّ، لأنَّ من يطلبهُ يفوقُ كلَّ معرفة، تحجبُه لا إمكانيّة إدراكه من كل جهةٍ كما لو كان في ظلام. ولهذا يقول يوحنّا الملائكيّ الذي دخل في تلك الظُّلمة النيّرة «الله لم يرَهُ أحدٌ قطّ»، محدِّدًا بهذا النّفي أن معرفةَ الجوهر الإلهي ليست في مُكنةِ البشر وحَسْبُ، بل ليست في مُكنةِ أيّ طبيعةٍ عقليّة أيضاً، وهكذا فعندما تقدّم موسى في المعرفةِ أعلنَ أنه يرى اللّهَ في الظلام أي انه عرفَ أن الالوهةَ تفوقُ جوهريًّا كلَّ معرفة (أدريّة)، وانها فوقَ إدراك العقل. والتاريخُ يقول ان «موسى دخلَ في الظّلمةِ حيث كان الله». أيُّ إله؟ «الذي مهّدَ في الظلامِ مضجعَهُ» (مز ١٧ : ١٣) على

(٣٣) هذه هي الفكرة الرئيسيّة والجوهريّة في كتاب غريغوريوس. وهو هنا يستوحي فيلون.

(٣٤) يشمل التجرّد الحواس والعقل العاديّ.

حدّ قول داود الذي لَقِنَ هو أيضاً في المقدسِ السرّيّ نفسه[٣٥] علمَ الأسرارِ الخفيّة.

عندما وصل موسى إلى هذا الحدّ قُدّمَ له بالكلام التعليمُ الذي نالَهُ قبلاً بالظّلام، وذلك، على ما أرى، لكي يُثَبِّت إيمانُنا بهذه العقيدةِ بشهادةِ الكلام الإلهيّ. والأمرُ الذي يتصدّى له الكلامُ الإلهيّ قبلَ كل شيء هو أن يُشبّهَ البشرُ اللّهَ بأيّ شيءٍ ممّا يعرفونَهُ؛ ونحن نتعلّمُ من ذلك انّ كل تصوُّرٍ يتصوّره العقلُ لإدراك الطبيعة الإلهيّة والإحاطة بها من شأنِهِ أن يقيمَ وثنًا لله لا تعريفًا به[٣٦]. والفضيلةُ المسيحيّةُ تُقسَمُ قسمَين: قسمًا يتعلّق بالله، وقسمًا يتعلّقُ بالاستقامةِ الأخلاقيّة. وطهارةُ الأخلاق جزءٌ من الدِّيانة. وقد تعلّمنا ماذا يجب ان نعرفَ عن الله، وأنّ تلك المعرفةَ تقومُ، كما رأينا، بأن لا نتصوَّرَهُ انطلاقًا من طريقة معرفتنا البشريّة. فعلينا الآنَ أن نعرض لوجهِ الفضيلةِ الثاني الذي نجدُ عملَهُ في سلسلة الأعمال التي يجب على الحياة الفاضلة ان تقوم بها[٣٧].

ويَصَلُ إلى المقدسِ «الذي لم يُصنَعْ بيدٍ بشريّة». فمَن يتبعُ موسى في سيرهِ بين هذه الحقائقِ وفي تَصْعيدِ روحه إلى مثلِ هذه الأعالي؟ انه ينتقلُ من قمّةٍ إلى قمّةٍ في تصعيدِه إلى العَلاء، ويتعالَى أبدًا فوقَ

---

(٣٥) ἄδυτον: طالع افلوطين: التاسوعات ٦:٩، ١١، ٢٥).

(٣٦) في نظر غريغوريوس لا تختلف صنميّة التصوّر عن صنميّة الأنصاب.

(٣٧) وفي نظر غريغوريوس واوريجانس أنّ الكمال المسيحي عمل وتأمُّل. (vie active et contemplative).

ذاتهِ. بدأَ بمغادرةِ حضيضِ الجبلِ، وبالانفصالِ عن جميعِ الذين تَلكَّأُوا عن التّصعيدِ؛ ولمّا بلغَ الأَعالي أدركَتْ أُذناهُ صوتَ الأَبواق؛ وبعد ذلك دخلَ هيكلَ معرفةِ الله الخفيّ وغيرِ المرئيّ. ولم يلبَثْ هناكَ بل انتقل إلى المَقْدسِ الذي لم يُصنَعْ بيدٍ بشريّةٍ (طالع عب ٩ : ١١). وهنالك مُنتهى ما تصلُ إليه النفسُ التي ارتفعَتْ إلى تلك الأَعالي.

يَبْدو لي أنّه من الممكنِ تفسيرُ البوقِ السّماويّ على غيرِ ما فسّرناهُ آنفًا بكونهِ الطريقَ المُؤَدّي إلى الله. فقد يكونُ هنالك تناغُمُ الموسيقى الكونيّةِ العجيبة، مُذيعًا الحكمةَ التي تملأُ الوجودَ وتتحدَّثُ بعِظَمِ مجدِ اللهِ الذي يَظهر في الأشياءِ المنظورةِ وفاقًا للقولِ المأثور: «السَّماواتُ تنطق بمجدِ الله»[٣٨] (مز ١٨ : ٢). أَليسَ في ذلك بُوقٌ قويّ، يُعلِّمُ بطريقةٍ واضحةٍ وصارخة. وقد قال أحدُ الأنبياءِ: «أرعدَ الربُّ من السّماء» (يش ٤٦ : ٢٠). فمن كانت أذُنُ قلبهِ طاهرةً أدرك هذا الصوتَ – أعني بذلك تأمُّلَ الكونِ الذي تنبعثُ منه معرفةُ القدرةِ الإلهيَّةِ ومنه وبه تدرّجَ بالروح الى حيثُ الله؛ وهذا المكانُ يدعوه الكتاب «ظلمة»، وهذا يعني، كما أَسْلَفْنا، عدمَ إمكانيّة المعرفةِ والرُّؤية، وهنا يتأمّلُ المَقْدسَ الذي لم يُصنع بيد بشريّة والذي سبقَ الكلام عليه، ويُقدِّم عنه صورةً ماديّة لمن ظلُّوا في أسفلِ الجبل.

(٣٨) اذا كان جوهر الله لا يُدرك فان وجوده ظاهر بأعماله في العالم. هذه مرحلة اولى في الصعود إلى الله، يستطيع حكماء الوثنيّة أنفسهم ان يبلغوها؛ وهي المرحلة التي بلغها ابراهيم عندما كان في أرض الكلدانيّين.

المَقْدس السماويّ

ما هو هذا المقدِسُ «الذي لم يُصنَعْ بيدٍ ببشريّة» والذي قُدِّم لموسى على الجبلِ، وأُمِر موسى بأن يتّخذه نموذجًا يصنعُ على مثالهِ العجيبِ مَقْدِساً من صُنع يدٍ بشريّة. قال الله: «تصنعُ كل شيءٍ على مثال ما أنا مُريكَ في الجبل». أعمدةٌ من ذهبٍ على قواعدَ من فضّةٍ وتيجانُها كذلك من فضّة؛ وأَعمدةٌ أُخرى قواعدُهَا وتيجانُها من نحاسٍ وأُسْطوانتُها من فِضّةٍ؛ وجميعها قائمةٌ على قاعدةٍ من خشب السَّنْطِ ومُغشَّاةٌ بموادَّ ثمينةٍ؛ وكذلك التابوتُ من خشبِ السَّنْط ومُغشًّى بذهبٍ خالصٍ من داخِل ومن خارِج؛ أَضِفْ إلى ذلك مَنارةً لها على قاعدتِها ساقٌ واحدة، وتتفرَّعُ من أعلاها سَبْع شُعبٍ على كلِّ شعبةٍ سراجٌ؛ والمنارةُ من ذهبٍ لا من خشبٍ مغشًّى بالذَّهبِ؛ ثم مذبح التكفير، والمذبح، والكَروبونَ الذين يُظلِّلون بأَجْنَحتهم التابوتَ، كل هذا مصنوعٌ من ذهبٍ مطروق، لا من ظاهرِ ذهبٍ برّاقٍ ومُصطَنع؛ وإلى هذا ستائرُ مختلفةٌ من قماشٍ فنّيّ النَّسْج ومختلفِ الالوان، تقسم الخيمة قسمَيْن: قسمًا مكشوفًا ومُباحًا لبعض خُدّامِ الهيكل، وقسمًا محظورًا وخفيًّا؛ أما الأَوّلُ فيُدعى القُدْسَ، وأما الثاني فيُدعى قدسَ الأَقْداس؛ ثم المغاسِلُ، والمواقِدُ، والخيمةُ فوقَ المسكن، والستائرُ من شَعر، والأغطيةُ من جلدٍ مَدْبوغٍ باللون الأحمرِ؛ وسائر ما ذُكِرَ في الكتاب المقدَّس.

فما المعنى الدقيقُ لهذه الأمورِ كلها؟ وما مِثالها في عالم الحقائق غيرِ المرئيّة؟ وما الفائِدَةُ من النُّسخةِ الماديّةِ للحقائقِ التي تأَمَّلها موسى،

عندَ الذين ينظرونَ إليها؟ يَبدو لي من الأفضلِ تَرْكُ التفسيرِ الأصيلِ في هذه الأمور، للذينَ مُنِحوا النِّعْمةَ «لفحصِ كلِّ شيءٍ بالروح حتى أعماقِ الله» (١ كور ٢ : ١٠)، والذين يَسْتطيعونَ، على حدِّ قولِ الرسول، «بالرُّوح أن ينطقوا بأسرارٍ» (١ كور ١٤ : ٢). أما ما نقولُه نحن في هذا المَوضوعِ فهو على سبيلِ الافتراضِ، ونتركُ لحكُم قرّائِنا أمرَ إسقاطه أو تبنّيهِ وفقَ ما يتبيّنُ لهم. فنقول، مُنطلِقينَ من بولسَ الذي كشف جزئيًّا ما تنطوي عليه هذه الأمورُ من سِرٍّ، نقول ان موسى قد أُنبِئَ مُسبقًا وصُوَريًّا بسرِّ المَقدس الذي يحوي الكلّ: انه المَسيح، قدرةُ اللّهِ وحكمتُه، الذي هو في ذاتِ طبيعته لم يُصنع بيدٍ بشريّةٍ، ولكنه يتّخِذُ وجودًا مخلوقًا عندما يُقامُ المقدسُ فيما بيننا. وهكذا فالمقدسُ نفسُهُ هو مخلوقٌ وغيرُ مخلوقٍ، غيرُ مخلوقٍ بسابقِ وجودِهِ، ومخلوقٌ باتّخاذه وجودًا ماديًّا[٣٩].

لن تكونَ هذه الأقوالُ غامِضةً عندَ من وَرِثوا سرَّ إيماننا. انه وحيدٌ بَين الجميعِ ذاك الذي «كانَ قبل الدُّهورِ»، والذي «جاءَ في آخر الأزْمان» (كول ١ : ١٧). لم يكنْ بحاجة إلى ان يولدَ زمنيًّا؛ وكيف يكونُ بحاجةٍ إلى ولادةٍ زمنيّةٍ من كان سابقًا بوجُودِهِ الأزمان والدُّهور؟ ولكن بِسَبَبِنَا، نحن الذين فقدنا الكينونَةَ بانهيارِ إرادَتِنا، تنازل ووُلِدَ بشريًّا لكي يُعيدَ إلى الكينونةِ مَن خرج منها. انه اللّهُ الواحدُ، الذي به يَثْبتُ الجميعُ (كول ١ : ١٧)، والذي أقامَ له «مَقدِساً فيما بينَنا» (طالع يو ١ : ١٤)[٤٠].

---

(٣٩) المقدس العلويّ عند فيلون هو عالم الصُّور، والمقدس الأرضي هو العالم الحسيّ؛ أما غريغوريوس فيرى فيهما طبيعتَي المسيح؛ ورمزيّة التجسُّد هذه هي من خصائصه.

(٤٠) ان موضوع التجسّد مسكنًا للكلمة في مقدس الجسد مصدرُه إنجيل يوحنا الفصل

لَئِن دعوتُ مثلَ هذا الخيرِ العظيم «مَقْدِساً» فلا يَسُؤْ ذلك في عينِ من يُحبُّ المسيح، كما لو كانَ التَّعبيرُ يحطُّ من عظَمةِ الطَّبيعةِ الإلهيّة. فما من اسم، ممّا يستَعملُ للدَّلالةِ عليه، أجدرُ به من هذا الاسم، لأنَّ جميعَ الاسماءِ تُقصِّرُ عن الدَّلالةِ عليه بدقّةٍ، سواءٌ كانت للتَّعظيمِ أو لغيرِ التَّعظيم. وكما أنه من الممكنِ أن تُستعملَ جميعُ الأسماءِ الأُخرى استعمالاً تَقَويًّا ولكل منها بعضُ الدَّلالةِ على القدرةِ الإلهيّةِ، كطَبيب، وراعٍ، وحامٍ، وخُبز، وكَرْمة، وطريق، وباب، ومسكِنٍ، وماء، وحجر، ويَنْبوعٍ، وما إلى ذلك ممّا يقال لها، هكذا أُطلِق عليها اسمُ «مَقْدِس» للدَّلالةِ على الطَّبيعةِ الإلهيّةِ. فالقُدْرَةُ التي تحتوي الكونَ، والتي «يحلّ فيها كل مِلْء اللاّهوتِ» (كول ٢ : ٩)، والملاذُ العامُّ للكل، الذي يحتوي الكلَّ في ذاته، دُعي بجدارةٍ «مَقْدِساً».

يجب تفسيرُ الرُّؤْيا كلِّها بهذا المعنى، بحيثُ يقودُ كلُّ شيءٍ من الأشياءِ المرئيّةِ إلى تأمُّلِ تصوُّرٍ لائقٍ بالله[٤١]. وبما أنَّ الرَّسولَ العظيمَ يقول بان «حجابَ المقدس السُّفليّ هو جَسَدُ»[٤٢] المسيح (عب ١٠ : ٢٠) من حيث إنه، على ما أَعتقِدُ، منسوجٌ من خيوطٍ مختلِفَةٍ تمثِّل العناصرَ الأَربعةَ (وكان هو أيضاً قد حظيَ برُؤْيا هذا المقدس،

الاول، الآية ١٤. فالتجسّد هو بناء المقدس الحقيقي.

(٤١) تصوُّر اللوغُس Λογος كمبدأ لوحدة الكون هو تصوّر رواقيّ في الأصل. وهو وارد عند فيلون.

(٤٢) لاهتمام غريغوريوس باللجوء الى القديس بولس لدعم الطريقة المجازية صلة بالجدل الذي شاع نحو سنة ٣٩٠ في شأن التيّار الاوريجانسيّ.

ودخلَ قدسَ الأقداسِ العلويَّ الخفيَّ حيث كشفَ له الروحُ القدسُ عن أسرارِ الفردوس)، فقد تكونُ الطَّريقةُ الأجدى في أن نمضيَ في الكلام من التّفسير الجزئيّ متبسِّطين من الجزءِ إلى مُجمل المقدس. أَوَلم يقُلْ في موضعٍ آخرَ عن الابنِ الوحيدِ الذي يُمثِّله المقدسُ أن «به خُلِقَ جميعُ ما في السماواتِ وعلى الأرض، ما يُرى وما لا يُرى عُروشاً كان أو سياداتٍ، أو رئاساتٍ أو سلاطينَ» (كول ١ : ١٦)؟ وهكذا فالأعمِدةُ المتلألئةُ بالذَّهبِ والفضّةِ، والعَتلاتُ، والحَلقاتُ، والكروبون الذين يُغطّون التَّابوتَ بأجنحتِهم، وأخيرًا جميعُ الأشياء التي وردَت في وصفِ بناء المَقْدِس، إذا تتبّعنا بنظرٍ موجّهٍ إلى أُمورِ العلاء، نجدُ فيها القوّاتِ فوقَ الكونيّةِ التي توجَدُ في المقدسِ والتي تُسْنِد الكلَّ وفقَ إرادةِ الله[٤٣]. انها العتَلاتُ الحقيقيّةُ «المُرسَلةُ للخدمةِ من أجلِ الذين سَيَرِثون الخلاصَ» (عب ١ : ١٤) وقد أُدخِلت في نفوسِ المُخلَّصين كما في حَلقات، ترفعُ بها الى أعالي الفضيلةِ مَن كانوا مُلاصِقينَ الأرضَ. أما الكروبون الذينَ يُرِيناهم النصُّ مُظلِّلين بأجنحتِهم الأشياءَ العجيبةَ الموضوعةَ في التَّابوتَ، فإن النصَّ نفسه يُثبتُ المعنى الروحيَّ الذي يجبُ أن يؤخَذَ به المقدس. ونحن نعلم أن هذا هو اسم القوّاتِ التي رآها أشعيا وحزقيال واقفةً حولَ الألوهة.

أمَّا الأجنحةُ التي تَظلِّلُ تابوتَ العهد، فلا تَسْتَغْرِبْهَا أَسْماعُنا. فإننا نجدُ عندَ أَشَعْيا صورةَ الأجنحةِ هذه نَفْسَها (أش ٦ : ٢)؛ إلاّ أنَّ ما

(٤٣) المقدس العلويّ هو رمز العالم العلويّ بعد ما كان رمز طبيعة المسيح الالهيّة. وهذا العالم العلويّ ليس عالم الصُّور والمُثل، بل عالم الملائكة. وهذا المقدس عند غريغوريوس يحتوي كامل الخليقة الروحانيّة.

يَسترُهُ الجناحانِ يُسمّيه أَشعْيا وجهًا لا تابوتًا، وإن دلَّ عندهُ على الحقيقةِ نفسها. وهذا الرَّمزُ يبدو لي أنه، في دلالتهِ، يُشيرُ إلى أنَّ العقلَ يُقصِّر عن تأمُّل الأسرارِ الإلهيّةِ. وإذا انتقلتَ إلى المنارةِ، وإلى السُّرُجِ التي تنطلقُ من ساقٍ واحدةٍ وتنقسمُ إلى عدّةِ شُعَب لكي تَنشرَ في جميعِ الجهاتِ نورًا غزيرًا، فانك لن تُخطئَ إذا رأيتَ فيها أنوارَ الرُّوح المختلفةَ التي تتلألأُ في المقدس. وهذا ما يقولُهُ أَشعيا عندما يقسمُ أنوارَ الرُّوحِ إلى سبعةٍ (أش ١١ : ٢). وأمّا مذبَحُ التكفيرِ، فأظنُّ أنَّه لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ، بعد ما أوضحَ الرسولُ معناه الخفيّ قائلاً: «الذي جعلَهُ الله كفّارةً لأجل خطايانا» (روم ٣ : ٢٥). وأما المذبح، ومذبح البخور، فأعلم أنّهما عبادةُ الخلائقِ العلوية في المقدسِ تتواصَلُ في غيرِ انقطاعٍ. وهكذا فلَم يُقَل عمَّن هم «على الأَرض» و «تحت الأرض» فقط، بل عمّن هم «في السَّماوات» أيضاً (فيل ٢ : ١٠) بأن لسانَهم يُمجّد المتقدّمَ على جميع الأَشياء. تلك هي الذبيحةُ التي يرتضِيها الله، «ثمَرُ الشّفاه» (عب ١٣ : ١٥)، على حدِّ قول الرسول، و «رائحةُ الصلواتِ الطيّبةُ» (رؤ ٥ : ٨).

ولَئِن شُوهِدَ أيضاً بينَ الأَشياء التي تملأُ المقدِسَ جِلْدًا مصبوغًا بالصّبغ الأحمر، وأغطيةً من وَبَرٍ، فذلك لا يقطَعُ سِلْسلةَ تأمُّلنا؛ فإنَّ النظر النبويّ، الذي وُهِبَ رؤيةَ الأمورِ الإلهيّة، يرى في ذلك الآلامَ الخَلاصِيّة السَّابقةَ الوجودِ في الفكر الإلهيّ، وقد دلّ عليها كِلاَ الرَّمزيْن، اللونُ الأحمرُ صورة الدّم، والوبَرُ صورة الموتِ؛ إذ ان الوبَر خالٍ من الشُّعور، وهو صورةٌ دقيقةٌ للموتِ.

المقدس السُّفليّ

تلك هي الحقائقُ التي يكتشفُها النّبيُّ في الرُّموزِ عندما يتأمَّلُ في المقدسِ العلويّ. وَلْنَجُز الآن إلى التأمُّل في المقدِسِ السُّفليّ. وبما أنّ بولسَ، في أمكنةٍ كثيرة، يُمَاثِل الكنيسةَ بالمسيح[٤٤]، فبإمكاننا ان نرى في خُدّامِ السرِّ الإلهيّ الذين يدعوهُم الكتاب «أعمدةَ» الكنيسة، (غلا ٢ : ٩) رُسلاً، ومُعلِّمين، وأنبياءَ (١ كور ١٢ : ٢٩)؛ فليس «بطرسُ ويوحنا ويعقوب» وحدَهم «أعمدة» الكنيسة، وليس يوحنا المعمدانُ وحده «السراجَ المُنير» (يو ٥ : ٣٥)، بل جميع الذين يُساندونَ الكنيسة بطاقاتهم، وجميع الذين يُنيرونها بأَعْمالهم، هم أعمدةٌ وسُرُجٌ. قال الربُّ لتلاميذه: «انتم نور العالم» (متى ٥ : ١٤). وقد توجَّه الرَّسول الالهيّ إلى آخرين وأَمَرهم أن يكونوا أَعْمدةً عندما قال لهم: «كونوا راسِخين غيرَ مُتزَعْزِعين» (١ كور ١٥ : ٥٨)؛ وقد نحتَ في الحقيقةِ من تيموثاوس عمودًا جميلاً عندما صنعَ منه، على حدِّ قولهِ، «عمودَ الحقِ وقاعدتَه في الكنيسة» (١ تيم ٣ : ١٥).

ونرى في هذا المَقدسِ أيضاً ذبيحةَ الحمد وبخورَ الصّلاة يقدِّمُها الجميع صباحَ مساءَ. وداودُ العظيمُ يُقدِّم لنا معنى هذه الصُّورِ عندما يُوجِّهُ إلى الله بخورَ الصَّلاة «لتقُمْ صلاتي كالبخورِ أمَامَك» وَ «يرفعُ يديهِ تقدمةَ مساءٍ» (مز ١٤٠ : ٢). وفي المُغْتَسلاتِ نرى من يَغْسِلون أدرانَ الخطيئةِ بالماءِ السرّيّ. وكان يوحنا مُغْتَسَلاً يغسِلُ في الأُردن «في معموديّةِ التوبة». وكان بطرسُ مُغْتَسَلاً يُنزِلُ في الماءِ ثلاثةَ آلافِ رجلٍ

(٤٤) المقدس السُّفليّ أو الأرضي يمثّل الكنيسة عند غريغوريوس وعند اوريجانس.

معًا. وكان فيلبسُ مُغْتَسَلَ قندَاق، وكانوهُ جميعُهم لجميعِ الذين اشتركوا في المَوْهبةِ وكانوا عواملَ نعمةٍ.

والخيامُ الموصولةُ بعضها ببعضٍ، التي تُطِيفُ بالمقدس، يُمكن تفسيرُها على أنها اتّحادُ نفوس المؤمنينَ في المحبّةِ والسَّلام (طالع أع ٤ : ٣٢). وهذا التفسيرُ لِداودَ حين يقول: «يجعل تخومَكِ سَلامًا» (مز ١٤٧ : ١٤). والجِلْدُ المصبوغ بالصّبغِ الأحمر، وأغطيةُ الشَّعر المجدولِ التي تشترك في تزيينِ المقدِس، تعني إماتةَ «جسدِ الخطيئة»، وتقشّفَ الحياةِ النسكيّة اللذَيْنِ هما أجملُ زينةٍ في مقدِسِ الكنيسة. فالجلودُ الخالِيَةُ في ذاتها من الحياة، والتي يُكسبُها الصبغُ الأحمر شيئًا من زهوةِ الحياة، تعلّمنا ان نعمةَ الروح لا تُزهرُ الاّ في نفوسِ الذين ماتوا للخطيئة. وقد يُشيرُ الكتابُ بالصبغِ الأحمر إلى الحشمةِ والخفَر: أتركُ في ذلك الحكمَ للقارئ. أما الشَّعر المجدولُ الذي يتكوَّنُ منه نسيجٌ قاسي المَلْمس وكريهُ الخشونة فيُوحي بالتوبةِ القَشِفة التي تُضْعِفُ الأهواءَ التي تُحاربنا: تلك هي عناصرُ حياةِ التبتُّل التي تضبطُ جسدَ من يُمارسها. وأخيرًا إذا كان الدخولُ إلى الداخل، أي إلى قُدسِ الأقداس، محظورًا على الشعبِ، فذلك يتّفقُ تمامَ الاتّفاقِ مع المعنى الروحيّ؛ فإنَّ حقيقةَ الكونِ هي شيءٌ في الحقيقةِ مُقدَّس، وقدسُ أقداسٍ، لا يُمَسّ ولا يُنال. انها تُقيم في نواحي مَقْدسِ السرّ السرّيّةِ والمحظورة. وكيف لا تقفُ جهودُ العقل عاجزةً عندما تكونُ الحقيقة المطلوبةُ فوق طاقتِه. فيجب اذن أن نؤمنَ بوجودِ ما نطلبُ، بدون ان نفكّر في أنّه ظاهرٌ للجميع، عالمينَ بانه قائم، وإن محظورًا، في نواحي النفس الخفيّة.

الحلّة الكهنوتيّة

إذْ كانت عينُ نفسِ موسى قد لُقِّنت هذه الأمورَ، ولُقِّنت غيرَها من نوعها، برُؤْيا المَقْدِس التي أُرِيَتْها، وإذْ كانت قد طُهِّرت ورُفعت برؤًى تأمُّليَّة مُماثِلة، فهي ترتقي إلى قمم روحيّة جديدة. إنه يتلقّى وصفًا للحلّةِ الكهنوتيّة التي تتألَّفُ من قميصٍ، وأَفُودٍ، وصُدْرةٍ شهيرةٍ متألِّقةٍ بحجارةٍ كريمةٍ مختلفةٍ، وعمامةٍ حولَ الرأسِ تَعلوها صَفِيحة، وسَراويل، ورُمَّانات، وجلاجل؛ وفوق ذلك كلّه صوتُ الوَحي والقضاء تتجلّى فيها الحقيقة؛ ثم الكتفان اللتانِ تحملانِ من هُنا ومن هنا أسماءَ أسباطِ إسرائيل. إن أسماءَ هذه الملابسِ تجعل تأويلَها الروحيّ لأيّ إنسان خاليًا من الفائدة. فلأيِّ ملابسَ جسديّةٍ هذه الأسماءُ التي للقضاء والوحي والحقّ؟ ان ذلك يظهرُ بوضوحٍ ان النصَّ يُشير، لا إلى الملابسِ الحسّيّة، بل إلى زينةٍ للنفسِ منسوجةٍ من أعمالِ الفضيلة.

والقميصُ مصبوغةٌ بلونٍ سَمَنْجونيّ؛ وقد ذهبَ بعضُ من سبَقَنا في التأويلِ الرمزيّ لهذا المَقطع، إلى أنَّ هذا اللونَ يدلُّ على الهَواء. وليس لي أن أبتّ في هذا الأمرِ؛ إلا أنني لا أُنكِرُ إمكانَ أن تدلَّ الفكرة روحيًّا على الفَضِيلة. من هنا نرَى الكتابَ يأمرُ مَنْ يريدُ التكرُّسَ لخدمةِ الله، أن «يقدّم جسَده» ذبيحةً، وأن يُصبحَ «قربانًا حيًّا» للذَّبيحةِ الحيّة و «للعبادة الروحيّة» (روم ١٢ : ١)، وان لا يُرهق نفسَهُ بملابسِ حياةٍ غليظةٍ وماديّةٍ، بل أن يجعل أعماله كلّها، بطهارة حياته، خفيفةً كنسيج عنكبوت؛ وهكذا يُجدِّد نسجَ هذه الطّبيعة

الماديّة، ويقتربُ من الذي لا ثقلَ له، الخفيف والهوائيّ، بحيث انّنا «متى لعلعَ صوتُ البوقِ» الأخيرُ نجدُ أنفسَنا أحرارًا من كل ما يُثقِل ويَبْهَظ، فنُلبّي نداءَ مَن يُنادينا، «ونُخْتطَفُ إلى العلاءِ في الجوّ مع الربّ» غير مُقَيَّدين على الأرض بأيِّ قيد (طالع ١ تس ٤ : ١٧). فمن جفَّف نفسه كالعنكبوت، على حدّ قول صاحبِ المزمور، (مز ٣٨ : ١٢) ارتدى هذه القميصَ الهوائيّة[٤٥]. وهي تمتدُّ من الرَّأس حتى القدمَيْنِ، وذلك يعني أنّ الناموس يأبى الفضيلةَ المبتورة[٤٦].

جلاجلُ الذَّهبِ والرُّمّانات المتناوبة تُمثِّل تألُّقَ الأعمال الصالحة. فالكمال يتألَّفُ من أمرَيْن مُجْتَمِعَيْن هما الإيمانُ بالله، وحياةٌ بحسب الضمير. وهذه الرُّمَّانات والجلاجلُ علّقَها بولسُ العظيم بثوبِ تيموثاوس، عندما قال له بُوجوبِ الحصولِ على الإيمان والضميرِّ الصّالح (١ تيم ١ : ١٩). فليَبْعث الإيمانُ صوتًا صافيًا وقويًّا عند الكرازةِ بالثَّالوثِ الأقدس. ولْتَتَشَبّه الحياةُ من جهتها بطبيعةِ الرّمانة[٤٧]، فهي مُغلَّفة الخارج بقشرة قاسيةٍ خَشِنة غير صالحة للأكل، وهي في داخِلها تروقُ النظر بنظام ثَمرتِها المتنوّعة، وتطيبُ للذوق على وجهٍ خاص بعذوبةِ مَذاقِها. وهكذا حياةُ أصدقاءِ الحكمة

---

(٤٥) القميص الهوائية تختلف عن القميص الجسميّة، وعن القمصان الجلديّة الغليظة والخشنة التي تمثّل الحياة في الجسد. وهي هنا تدلّ على الحياة الفاضلة.

(٤٦) يذهب غريغوريوس إلى انه يجب اكتساب جميع الفضائل.

(٤٧) يطيب لغريوريوس ان يتكلم على الرّمانة ويشبّه بها الفضيلة؛ فالفضيلة في بدء أمرها قاسية وخشنة لأنها تخالف طبيعتنا الشاذّة، ولكنها تدخلنا بعد ذلك إلى عذوبة «الغذاء الداخلي».

القَشِفة، فهي خالية من كلِّ ما يدغدغُ الحواسّ ويُغْويها، ولكنها حافلةٌ بالأماني السعيدة لليوم الذي تنضج فيه ثمرتُها. فعندما يفتحُ بُستانيُّ نفوسِنا رمّانةَ حياتِنا، ويُبرزُ جمالَ الأشياء المُخبّأة فيها، عند ذلك تُمْتِع فَواكهُها جميعَ من حصلوا على نصيبٍ منها؛ والرسولُ الإلهي نفسُه قال ذلك في مكانٍ ما: «لا جرمَ ان كلَّ تأديب لا يُظَنُّ في وقته للسُّرور بل للغمّ» (عب ١٢ : ١١). وهذا هو الشعورُ الذي يبعثهُ الاتّصالُ الأوّلُ بالرمّانة؛ ولكنها بعد ذلك تقدِّم «ثمرَ سلام»: انه عذوبةُ الأغذيةِ الداخليّة.

وفي شأنِ القميص يأمرُ الكتابُ بأن تكون مزخرفةَ الحواشي بشراريبَ مستديرةٍ معلَّقةٍ لمجرّدِ الزّينة. وهذا يُعلِّمنا أَن ليس للفضيلة قياسٌ محدودٌ، وقد تُرك لنا أن نزيدَ فيها وعليها ما بِوسْعنا زيادتهُ. وهكذا نُضيف شيئًا إلى جمالِ اللِّباس، كما كانَ يفعلُ بولس، جامعًا إلى الأحكام زخارفَ أعمالهِ الإضافيّة. وفيما يأمرُ الناموسُ بأنَّ الذين يخدمونَ الهيكلَ يَعيشونَ من الهيكل، ويُبيحُ للذين يكرزونَ بالإنجيلِ ان يعيشوا من ذلك، يريدُ بولس ان تكونَ الكرازةُ بالإنجيل مجّانيّة، ويُؤْثرُ لذلك ان يُقاسيَ الجوعَ والعطشَ والتّعب: تلك هي الزخارف الجميلة التي تُضيفُ إلى قميصِ الوصايا جمالاً وروعةً (طالع: ١ كور ٩ : ١٣ و ٤ : ١١؛ ٢ كور ١١ : ٧).

وفوقَ القميصِ كتفانِ من النسيج تنحدرانِ إلى الصَّدرِ وتُغطِّيانِ الصَّدرَ والكاهِلَ. وهما متّصلتانِ وكلُّ واحدةٍ منها مشدودة بطوقٍ إلى الصُّدرةِ، وعلى حَجَري الصُّدرةِ أسماءُ بني إسرائيل منقوشةً، ستّةٌ من

هنا وستّةٌ من هناك؛ ونسيجُ الصُّدرة بعدّةِ ألوان: سمنجونيّ، وقرمزيّ، وأرجوانيّ، وكتّانيّ، وكلها محبوكةٌ بخيوطٍ من ذهب. وتمازُجُ هذه الألوانِ المختلفةِ يُكوّن نسيجًا رائعَ الجمالِ. ونحن نتعلَّمُ من ذلك كلّه أنَّ جمال الإنسان الروحاني، الذي يمثّله القِسمُ الأعلى من اللباس، يتألّفُ من مزيجٍ من الفضائلِ المتعدِّدة والمختلِفَةِ: فالأزرقُ السَّمنجونيّ يمتزجُ بالأرجوانيّ، أي انّ الوقارَ الملكيّ يجتمعُ إلى طهارةِ الأخلاق، والكتّان يمتزجُ بالقِرمز، أي ان احمرارَ الحشمةِ يجتمع إلى بياض حياةٍ خالية من العيب. والذهبُ الذي يلتمعُ بين هذه الألوانِ كلها يدلُّ على الكنزِ المخبُوءِ في مثل هذه الحياة. أما أسماءُ الأسباط المنقوشةُ على الحجارة فلا تُزْدَرى قيمةُ زخرفتِها: فنَماذجُ الفضيلة التي حقّقَها الأسباطُ قديمًا هي ثروةٌ في تُراث البشريّة[٤٨].

على أنسجةِ الحلّة هذه تنحدرُ زينةٌ أُخرى هي طَوْقانِ من ذهبٍ موصولانِ بالكتفينِ يَحملانِ مُرَبَّعةً من ذهب رُكِّب فيها اثنا عشرَ حجرًا في نظامِ أسطرٍ أربعةٍ، في كل سطرٍ ثلاثةُ حجارة. وقد يكونُ في هذه الحجارةِ حجرانِ مُتشابهان، ولكنّ لكلِّ حجرٍ منها بريقًا خاصّاً. تلك كانت حالُ تلك الحلّة، فلننتقل إلى مدلولها. أمّا الطَّوقان الموصولان بالكتفينِ فهما، كما رأينا، صفحتَا السِّلاح الذي نحارب به العدوّ. فالفضيلةُ، كما ذُكِر آنفًا، تَعمل على طريقٍ مزدوجة، طريقِ الايمانِ، وطريقِ الحياة بحسبِ الضمير، ونحن في أمانٍ من هُنا

(٤٨) بعدما بيّن غريغوريوس في المقدس صورة الهيكل الروحانيّ، أخذ يبيّن في اللباس الكهنوتيّ صورة الانسان الروحاني، كاهن هذا الهيكل.

وهُناك، بفضلِ حمايةِ هذين الطَّوقينِ الدِّرْعَيْنِ، ونظلُّ غير مُعرَّضينَ لسهامِ العدوِّ، بفضلِ «أسلحةِ البرِّ عن اليمينِ وعن اليسارِ» (٢ كور ٦ : ٧). وأمّا المربَّعةُ المعلِّقةُ بالطَّوقينِ من هنا وهناك، والتي نُقِش على حِجارتِها أسماءُ الأسباطِ فهي الحجابُ الذي يَحمي الانسانَ الرُّوحانيَّ. والدرسُ الذي يُلقيهِ علينا النصُّ هو انّ الذي ردَّ سهامَ الشرّير بالطَّوقين الدِّرعَيْنِ يَزينُ نفسَهُ بجميع فضائلِ الآباءِ زُخْرفًا ذا ألَقٍ خاصٍّ على نسيجِ الحياةِ الكامِلَة. والشَّكلُ المربَّعُ يعني الثباتَ في الخيرِ، لأنَّ من الصعبِ إزاحةَ أيِّ شيء من مكانهِ فيه بسببِ الزَّوايا التي تحدُّ المساحَة المسطّحةَ التي يقومُ عليها هذا الشيءُ.

والسّلاسِلُ التي تُستعَملْ لتعليقِ هذه الزَّخارفِ بالذِّراعينِ تُعلِّمُ، على ما يَبْدو لي، أنَّ الحياةَ الكاملةَ تَقْتضي الجمعَ ما بينَ الفلسفةِ العمليَّةِ ومُمارسةِ التَّأمُّل، على أنَّ القلبَ رمزُ التأمُّلِ، والذّراعَ رمزُ العملِ. وأمّا العِمامَةُ التي تَزينُ الرأسَ فهي تُشيرُ إلى الإكليل المُعَدِّ للذينَ سَلكوا في حياتِهم سُلوكًا صالحًا؛ وهي مُزخرفةٌ بإشاراتٍ سرّيّةٍ نُقِشت على صَفيحتِها الذهبيّةِ «كنقشِ الخاتم». وأمّا النّعلانِ فلا يَنْتعِلُها من يلبسُ مثل هذه الحلّةِ المزخرفةِ، حتى لا تَعُوقاهُ في اندفاعِهِ، ولا تُعرقِلاَ حركتَهُ بجلودِهما المَيْتة، على حدِّ ما فسَّرنا سابقًا بالنسبة إلى مَشْهدِ الجبل؛ وكيف يُمكنهُ ان يزينَ قدمَيْهِ بنعلينِ هو الذي خلعَهما قبلاً على أنهما تَعوقانِ تصعيدَهُ؟

اللوحان المحطّمان والمُصْلَحان

انّ الّذي مرَّ بجميع مراحلِ التّصعيدِ التي تأمَّلنْا فيها يحملُ بيديهِ اللوحينِ اللذينِ نَقَش اللّهُ عليهما الشريعةَ الإلهيَّة. ولكنَّ هذينِ اللوحينِ يَتحطّمانِ باصْطِدامِهما بقسوةِ مُقاوَمةِ الخَطأة. وكانت الخطيئةُ في صُنعِ وثنٍ يُمثِّلُ عجلاً. فبعدَما صَنعوهُ ونصبوهُ أدَّوا له العبادَة. ولكنَّ موسى أسقطَهُ وحلّلهُ في الماءِ الذي أسْقَى به مَن خَطِئوا؛ وهكذا لُوشيت ملاشاةً كاملةً تلك المادَّةُ التي استعملَها البشرُ في كُفْرهم. هذه القصةُ هي نبُوءةٌ بالأحداثِ التي رأيناها تجري في أيَّامِنا[٤٩]؛ فقد زالت عبادةُ الأوثانِ الضالّةُ زوالاً كاملاً، وابتلعَتْها الأفواهُ التقيّةُ عندَ من قَضوا على جوهرِ الكفر في ذَواتِهم بآعترافِهم بالحقيقة. وأسرارُ الوثنيّة التي أُقيمت قديمًا على قواعدَ ثابتة تلاشت كماءٍ لا قرارَ له، كماءٍ شربتهُ أفواه من كانوا متعبّدين لها بحرارة. فعندما ترَى من كانوا غارقينَ في تلك الأوهام يقلبون اليوم ويحطّمونَ الأصنامَ التي كانوا جاعلينَ فيها ثقتَهم، الا يُخيَّل لك انك تسمعُ صوتَ التاريخ الذي كان يُعلِنُ أن «كلّ وثنٍ سيبتْلِعهُ يومًا فمُ أُناسٍ يهتدونَ من الضَّلالِ إلى الدينِ الحقيقيّ».

بعدَ ذلك نرى موسى يُسَلِّحُ اللاويّينَ على أبناءِ قومهم، وكان اللاويّونَ يذهبُونَ ويَرْجِعون من بابٍ إلى بابٍ في المحلَّةِ ويقتلونُ كلَّ من يَلْتقُونَ به في غيرِ تمييزٍ، تاركينَ لحدِّ السّيفِ ان يُقرِّر موتَ من يَمُوت. فكانوا يقَضونَ على كلِّ إنسانٍ يُصادِفونَهُ ولا يميّزونَ في من

(٤٩) إشارة إلى الاهتداءات التي جرت في القرن الرابع.

يقتلونَهُ أهو صديقٌ أو عدوٌّ، قريبٌ أو غريبٌ، أَليفٌ أو مجهولٌ؛ وواحدةً كانت حركةُ يدهم، في مُواجهةِ كل إنسانٍ تَقُع عليه. ويبدو أن الدرسَ المُفيد(٥٠) الذي نَستقيهِ من هذا المقطع هو أنه إذْ كان الجميعُ مشتركينَ جماعيًّا في الخَطيئةِ، وإذْ كانتِ المحلّةُ كلُّها وحدةً في الفسادِ، فالعقابُ النازلُ بهم يَضربُ في غيِ تمييز. وكما ان الانسان، إذا أُخِذَ في ذنبٍ يُجلَد، وأيًّا كانَ الجزء من جسدهِ الذي يُمزِّقهُ السّوطُ، فألألم يمتدُّ من الجُزءِ إلى الكل، وهكذا الأمرُ هنا فالجسدُ كلُّه آتّحدتْ أجزاؤُه في الخطيئةِ، وكان لِزامًا عليه ان يُعاقَب بجملتهِ، والعقابُ الذي نال قسمًا كان مُصلحًا للجميع. وهكذا إذا رأَيْنا غضبَ الله، في حالِ الخطأ الجماعيّ، لا ينالُ الجميعَ بل ينالُ البعضَ فقط، يجبُ أن نرى في ذلك بُرهانًا على الرحمةِ التي يُظهرها الله في إصلاح الأخطاءِ المرتكَبة؛ فلم يُجلَدِ الجميع، ولكنَّ الجميعَ رُدِعوا عن الشرِّ، وأُصْلِحوا بالضَّرباتِ التي نالها البعضُ.

ولكنَّ هذه النَّظرةَ تتعلَّق أيضاً بالمعنى الحرفيّ؛ وقد يُقدِّم لنا المعنى الروحيُّ بعضَ الفائدة. فالمشترعُ يتوجَّهُ إلى الجميعِ بآندفاعٍ ويقولُ لهم: «مَن كانَ للربِّ فليُقبل إليّ». وهذا ما يطلبهُ صوتُ الشَّريعةِ من الجميع: «من أراد ان يكونَ صَديقَ الله فَليكنْ صديقي أنا الشريعة». فمن كان صديقَ الشريعة كان أيضاً وكُلِّيًّا صديقَ الله. وهو يأمرُ الذين

(٥٠) إنّ مبدأ «الفائدة» هو المبدأ الكبير في التفسير الاوريجانسيّ. فلا بُدّ لكل مقطع من الكتاب المقدس من ان يحتوي فائدة، تُطلب أولاً في المعنى الحرفي، وإذا استحال ذلك تُطلب في المعنى الروحيّ.

حوالَيهِ ان يتقلَّدُوا سيوفَهم على إخوانِهم، وأَصدقائِهم، وجيرانهم. ونحن، إذا توجَّهنا نحو المعنى الرُّوحي، نفهمُ من ذلك أَنَّ من يتوجّه نحو الله ونحو الناموسِ يتطهَّرُ مُدمِّرًا ما فيه من عاداتٍ سيِّئَةٍ. والألفاظ «أخ، صديق، جار» ليس لها دائمًا في الكتاب المقدّس ما تُفيدُ من معنى وَضعيّ، فربَّ أخٍ يكونُ غريبًا، وصديقٍ يكونُ عدوًّا، وجارٍ يكونُ خصمًا[٥١]. من هنا نتفهَّم هذه الحركاتِ الداخليّةَ المتأصِّلةَ في نفوسنا، والتي تُميتُنا حياتُها، ويُحيْينا موتُها.

هذا التفسيرُ يتّفقُ وما شرحناهُ سابقًا في شأنِ هارون. فقد رأينا في مَجيئهِ لملاقاةِ موسى مُساعدةَ الملاك الذي يجترحُ المعجزاتِ في مقاومتهِ للمصريّين، والذي نعدّه متقدِّمًا في السنّ لتقدّم خَلْقِ الطبيعة غير الجسمانيّة والملائكيّة على طَبيعتِنا، وأخًا للقربى التي بين طبيعتِه العقليّةِ وطبيعتِنا. ولكن كيف يمكنُ القبولُ بأن يكونَ هارون منتصرًا لليهود ونحنُ نراه أداةً لوثنيّتِهم وعاملاً من عوامل عبادتهم للصَّنم؟ والكتاب المقدس أشارَ إلى أن في هذا الاسم «أخ» التباساً، فمن الممكنِ ان يكونَ لِلَّفظةِ الواحدة غيرُ مدلولٍ واحد عندما تُستعمل للدلالةِ على أشياءَ مختلفةٍ؛ فالأخُ الذي يُسقِطُ الطاغيةَ المصريّ غيرُ الاخِ الذي يصنعُ الوثَن للإسرائيليّينَ، وان كانت اللفظةُ واحدة. وعلى إخوةٍ من أمثالِ هذا استلَّ موسى السَّيف، فانّ ما كان يأمرُ به الآخرينَ كان يتقيّدُ به هو نفسهُ. واستئصالُ مثلِ هؤلاءِ الإخوة هو استئصالٌ

(٥١) نجد التفسير نفسه عند فيلون. وهذا الأخير يبتعد عن كل تفسير حرفيّ فيما يحاول غريغوريوس ان يجد أولاً تفسيرًا حرفيًّا مقبولاً ينتقل بعده إلى التفسير الروحي.

للخطيئةِ؛ فكلُّ إنسانٍ يمحُو الشرَّ الذي يصدرُ عن تبريرِ العدوّ يَقْضي في ذاته على الشرّ الذي كانُ يحيا بالخطيئة.

هذه الفكرةُ تزداد وضوحًا وبُروزًا إذا قرنَّاها ببعضِ الأحداثِ؛ فقد قيل إنَّ الإسرائيليّينَ نزعوا، بأمرٍ من هارون، شنُوفَ الذهبِ من آذانِهم، وبعدَما نُزِعت أصبحت مادَّةَ الوثَنِ. فماذا نقولُ في ذلك؟ نقول إنَّ موسى زانَ سَمْعَ الإسرائيليّينَ بزينةِ الشُّنوفِ التي تمثّلُ الشريعةَ، وإنَّ الأخَ الكاذبَ الذي دفعَ إلى العصيانِ، نزعَ الزينةَ التي جُعلت للسمعِ وصَنعَ بها وثنًا. وهذا ما جرى لدى ظُهورِ الخطيئة الأوّلِ: نَزْعُ الشَّنْفِ كان النّصيحةَ بمخالفةِ الوصيّة، قدّمَتْها الحيّةُ عندما تظاهرَتْ بأنها صديقةُ الأبوينِ الأوّلينِ وجارتُهما، وأنَّ ما تنصحُهُما به هو شيءٌ مُفيدٌ وصالح، فيتحوَّلانِ عن أمرِ الله، ويكونُ ذلك بمثابةِ نزعِ شَنْفِ الوصيّةِ من السَّمع. والذي يقتلُ إخوةً وأصدقاءَ وجيرانًا كهؤلاءِ، يسمعُ من الشريعةِ هذا القولَ الذي نقَلَهُ التاريخُ عن لسانِ موسى مُوجَّهًا إلى مُنفِّذي مثل هذه الأعمالِ: «لقد أَتيتُم اليومَ إلى الربِّ بأيدٍ ملأى، كلُّ واحدٍ مع ابنهِ الخاصّ أو مع أخيه الخاصّ؛ وستنالونَ اليومَ بَركةً».

كان من المُفيدِ، على ما يبدو، ان تَردِ في كلامنا الإشارةُ إلى اللذَيْنِ دشَّنا الخطيئة. وقد عَلِمنا هكذا كيف أنَّ اللوحينِ اللذينِ صنعهما الله، ونُقِشت عليهما الشريعةُ الإلهيّةُ، قد سقطا من يَدَيْ موسى على الأرضِ وتحطّما، وكيف أَن موسى نحتَ لوحينِ جديدينِ، لم يكونا اللوحينِ السَّابقَيْنِ، ولكنهما يَحْملانِ الكتابةَ نفسَها؛ فقد أخذَ

من الأرض مادّةَ اللوحينِ، وقدَّمها إلى الله لكي ينقشَ عليها الشريعةَ بقدرتِهِ؛ وهكذا استعادَ النعمة، وحمل الشريعةَ على لوحينِ حقيقيَّينِ نقشَ اللّٰهُ نفسُه الكلامَ عليها. قد يكونُ من المُمكنِ، على ضوءِ هذا الحادثِ، أن ندركَ شيئًا من تدبيرِ العناية الإلهيّة بالنسبةِ الينا. فإذا كانَ ما قاله الرسولُ الإلهيّ حقًّا، عندما أطلق على قلوبنا اسم «الألواح» (٢ كور ٣:٣)، أي قمّة النفس - وكيف لا يكون صحيحًا قولُ «من يفحص حتى أعماق الله» (١ كور ٢:١٠) - كان من الممكن ان نستخلصَ من ذلك، عن طريقِ الاستِدْلالِ، أنَّ طبيعةَ الإنسان الأصليّة، كانت غيرَ قابلةٍ الانحلالَ والموتَ، صنعَتْها اليدُ الإلهيّة ونقشَتْ عليها جمالَ الأحرفِ غيرِ المكتوبة من الشَّريعة: فالتوافقُ بينَ إرادتِنا والشريعةِ كان منقوشاً في طَبيعتِنا، مع الابتعادِ عن الشرّ واحترامِ الامورِ الإلهيّة[٥٢]. ولكن عندما بلغَ آذانَنا صوتُ الخطيئةِ الذي دُعِيَ في مطلع الكتاب المقدّس «صوتَ الحيّة»، وقصّة اللوحَين التي دُعيت «صوتَ مَن يتغنَّون في نَشْوةٍ»، سقَط اللوحانِ على الأرض فتحطَّما. وقد نحتَ المشترعُ الحقيقيّ، الذي يمثّله موسى، في ذاته لَوْحَي طبيعتِنا، واتّخذ مادّةَ أرضِنا؛ فلم يكن جسدُهُ الإلهيّ ثمرةَ زواجٍ، بل كان هو نفسهُ صانعَ جسدِه، منقوشًا بإصبعِ الله؛ انه الروحُ القدسُ «حلَّ على العذراء وقوّة العليّ ظلَّلتها»[٥٣]. وبعد هذا

(٥٢) يجب فهم الناموس الطبيعي هنا وفاقًا لما يتصوّره غريغوريوس عن الطبيعة، (φύσις) أي الإنسان الحقيقي، المخلوق في الحياة الفائقة الطبيعة.

(٥٣) في لوحي العهد صورة أُخرى للتجسّد؛ ونقشها باصبع الله يشير إلى بتوليّة مريم بعد الولادة، بعدما أشير إليها بالعلّيقة المحترقة والمَنّ. وهذا التفسير اللاهوتي هو من

الحادثِ استعادتَ الطبيعةُ منَاعتَها بعد إذ أَصبحت غيرَ قابلةٍ الموتَ بنقشِ الإصَبعِ، والإصبعُ هي الاسم الذي كثيرًا ما يُطلقهُ الكتابُ المقدَّس على الروح القدس (طالع لو ١١ : ٢٠).

كان أديمُ وجهِ موسى مُشِعًّا إلى حدٍّ أنَّ مجدَهُ كان يُعْشي عينَ الجسدَ. ومن كان مُلِمًّا بأسرارِ إيمانِنا لا يجهلُ المعنى الروحيَّ الذي ينطوي عليه القَصَصُ التاريخيّ. فالذي أصلحَ لوحَ طبيعتِنا المحطّمَ – وانت تعلم أنَّ هذه الألفاظ تدلُّ على من شفى أوجاعَنا – عندما أعادَ إلى لوح طبيعتِنا المحطّمِ جمالَه الأوَّل، وحوّله بالإصبعِ الإلهيّة إلى أحسنِ حالٍ، لم يَعُدْ في متناوَلِ عيونِ غير المستحقّينَ ولم يَعُدْ بإمكانِ الانظارِ المتّجهةِ إليه ان تُدركَهُ بسبب إشراقِ مجده الزائد. وفي الحقيقةِ، عندما يأتي، على حدّ قولِ الكتاب، في مجدهِ مع جميعِ ملائكتهِ، يكادُ الصدّيقون أنفسُهم أن لا يقْوَوا على استقبالِهِ ومُشاهَدَتِه؛ وأما الكافرُ والذي ينتمي إلى مِلّةِ اليهود، على حدِّ قول أشعيا، فهو عاجزٌ عن هذه الرؤيةِ: «ما دام المُنافق يعملُ بالإثم ولا يرى جَلال الربّ» (أش ٢٦ : ١٠).

التَّطاول

لقد استرسَلْنا في الكلام، ونحن نستقرئُ سلسلةَ شُروحِنا، محاولينَ ان نستوضحَ عن شيءٍ من معنى هذا المقطعِ الروحيّ. فلنعُدْ إلى موضُوعِنا. كيف يستطيعُ الإنسانُ الذي أظهرَتْ له الظهوراتُ

خصائص غريغوريوس.

الكثيرةُ اللّهَ واضحَ المرأى، على حدِّ شهادةِ الكتابِ المقدَّسِ عندما يتكلّم على «وجهًا إلى وجه» كما يكلّم المرءُ صاحبَهُ»، كيف يستطيعُ الإنسانُ الذي عرفَ ذلك ان يطلبَ إلى الله أن يتجلّى له، وكأنّه لم ينَلْ بعدُ ما نظنُّ أنه وجدهُ بحسب شهادةِ الكتاب؟ ألم يظهَرْ له بعدُ ذاك الذي لا يَنْقطِع ظهورُه؟ وصوتُ العلاء يَسْتجيبُ من جهة للرغبة التي ينطوي عليها طلَبُه ولا يرفضُ له هذه النعمةَ؛ ولكنه يقودُهُ إلى اليأس عندما يُبيّن له أنَّ ما يطلبهُ يفوقُ طاقةَ الطبيعة البشريّة(٥٤). ومع ذلك فان الله يقول «هوذا عندي مَوْضعٌ»، وفي هذا الموضع «صخرة»، وفي الصخرة «نُقرة»، وقد أمرَ موسى ان يقيم في نُقرة الصخرة؛ فاذا مرَّ يُظلِّلهُ بيدهِ ويُناديه؛ عند ذلك يرى موسى ظهرَ مَن ناداه، ويعتقد هكذا أنه رأى من يطلبُ، فلا يكونُ الوعدُ الذي حمله الصوت الالهيّ كاذبًا.

من نظرَ في هذه الأمورِ حرفيًّا لا يصطدمُ بمعنى عامضٍ وحسبُ، ولكنه يجدُ فيها أيضاً مدلولاً لا يتّفقُ مع اللّهِ؛ وهكذا فلا يمكنُ الكلامُ على الوجهِ والظَّهْرِ إلاّ في الأشياءِ ذاتِ الشكل، والحال ان الشَّكلَ هو حَدٌّ لأحدِ الأجسام. فمَن يَجعلْ لله شكلاً لا يُنزِّهْهُ عن الطبيعةِ الجسمانية. وكلُّ جسمٍ مركبٌ، والمركَّبُ مؤلّفٌ مَن عناصر مُتباينة. والمركّبُ لا يُنكِرُ أحدٌ أنه قابل الانحلال. والمركّبُ لا يمكن ان

(٥٤) اليأس عند غريغوريوس هو حالة النفس التي تجد دائمًا ان الجوهر الالهيّ فوق متناولها، والتي لم تدرك بعد أنّ امتلاك الله هو تقدّم متواصل في المشاركة التي لا تقف عند حدّ.

يكونَ غير قابلٍ الفساد، لانَّ الفسادَ هو انحلالُ المركَّب. فمن يجعَلْ للّهِ ظهرًا بالمعنى الحرفيّ يَقُدْهُ خَطلُهُ بالضَّرورة إلى نتيجةٍ غيرِ معقولة؛ لأنَّ الوجه والظهرَ مِن خصائص الشكل؛ والشكلُ في الجَسدِ؛ والجسدُ بطبيعتهِ قابلٌ الانحلالَ، لانَّ كلَّ مركّبٍ قابلٌ الانحلال؛ والذي ينحلُّ لا يمكن ان يكونَ غيرَ قابلٍ الفساد، فمن كانَ عبدًا للحرفِ كانَ مُضطرًّا، بنتيجةٍ حتميّة، إلى القول بأنّ في الله فسادًا. والحالُ ان الله في الحقيقةِ غيرُ قابلٍ الفسادَ وغيرُ ذي جسدٍ(٥٥). وهكذا فالتفسيرُ الملائمُ لهذا النصِّ ليس التفسيرَ الحرفيَّ. فاذا كان هذا المقطع، الذي هو قسمٌ من متنِ النص، يقضي بأن نفتّشَ له عن معنى آخر، كان من الملائمِ تمامَ الملاءمة ان نُعالجَ النصَّ كله على الخطّة نفسها. فما نكون قد وجدناهُ صحيحًا بالنسبةِ إلى الجزء يكون صحيحًا بالنسبةِ إلى الكل. وهكذا فالموضِعُ الذي عند الله، والصخرةُ التي في المَوْضِع، والمساحةُ التي في الصَّخرة والتي سُمّيت نُقْرة، ودخولُ موسى في هذا المجالِ، وامتدادُ يدِ الله على المَدْخل، والاجتيازُ، والنِّداءُ، ثم رؤيةُ القفَا، كلُّ ذلك يحسنُ تفسيرُهُ بالمعنى الروحيّ.

ما هو المعنى إذن؟ فكما أنَّ الأجسامَ الثقيلةَ إذا انحدرت بشدّةٍ من مكانٍ مرتفع، ولو لم يدفعها أحدٌ، وإذا انطلقَتْ وَثْبتُها الأولى، تندفعُ من ذاتِها نحو الهاويةِ بحركةٍ سريعة، إلى ان تجدَ مُنْبَسطاً تقفُ عنده؛ فهي إذا انطلقَتْ حركتُها شدَّها شكلُها إلى الأسفلِ، ما لم

(٥٥) نرى ان غريغوريوس يعمد في كلامه إلى أساليب الجدل، والوصف، والبرهان على طريقة المدرسة البلاغية والسوفستيّة الثانية.

يُوقِفْ أحدٌ سرعةَ انحدارِها بحاجزٍ من الحواجز. هكذا تكونُ النفس التي تحرَّرتْ من قيودِها الأرضيّة، فانها تنطلقُ نحو الأعالي خفيفةً وسريعةً، طائرةً من الأمورِ السُّفلى نحو السَّماء[٥٦]. واذا لم يَعْترِضْ لانطلاقِها أمرٌ من أمورِ الأرض – وطبيعةُ الخيرِ تجتذب إليها مَن يرفعونَ عيونَهُم إليها[٥٧] – ترتفعُ النفسُ أكثرَ فأكثرَ فوقَ ذاتها، «ممتدَّةً» برغبةِ الأمور العلويّة «إلى ما هو أمامُ»، على حد قول الرسول (فيل ٣ : ١٣)، وطيرانُها يُحلّق بها دائمًا إلى الأعلى[٥٨]. والرغبةُ التي عندها، بعدما بَلَغَتْه من تَعلٍّ، في بلوغِ ما هو أعلى، وتبعث فيها حركةَ تصعيديّةً لا تنقطع، بحيثُ انها تجد دائمًا في ما حقَّقَتْهُ انطلاقةً جديدةً في الطيرانِ إلى أعلى[٥٩]. فالنَّشاطُ الروحيُّ وحدَهُ يمتازُ بكونهِ يُغذِّي طاقتَهُ بٱستهلاكِها، ولا يفقد من قوّتهِ بل يزيدها بممارسته لها. ولهذا نقولُ بأنَّ موسى العظيمَ واصل تقدُّمَهُ، ولم يُوقِف قطُّ تَصعيدَهُ، ولم يَقْترحْ حدًّا لحركتهِ التّصعيديّة، نحو الأعالي، بل راحَ، مُذ جَعَلَ قدَمَهُ على السلّمِ التي «كان اللّهُ واقفًا عليها» (تك ٢٨ : ١٢)، على حدِّ قولِ يعقوبَ، راحَ يتسلّقُ الدّرجةَ العليا، مُواصِلاً دائمًا تعلّيَهُ، لأنَّ كل درجةٍ كان يبلُغها في الأعالي، كانت دائمًا إطلالةً على ما هو أعلى.

---

(٥٦) صورة طيران النفس بجَناحَيْن صورة افلاطونية كثيرًا ما يعمد إليها غريغوريوس، والجناحان عنده جناحا حمامة.

(٥٧) قضيّة اجتذاب الخير لما هو من طينته مذهب من مذاهب الفلسفة الدينيّة الهلنسيّة متأثّرةً بالافلاطونيّة والرواقيّة.

(٥٨) هذا موضوع الكتاب كله الذي ذُكر في المقدمة والمُقعد على كلام الرسول في فيل ٣ : ١٣. (ἐπέκτασις أي امتداد، تطاول).

(٥٩) الاشتراك الدائم الازدياد في الخير هو دائمًا نقطة انطلاقٍ جديد في التّصعيد.

لقد رفضَ أن يكون ابنًا لملكةِ مصرَ عن طريقِ الكذب؛ وثأرَ للعبرانيّ؛ وانتقلُ إلى بريّةٍ لا تُقلِقُها حياةُ البشر؛ ورعى في نفسِه قطيعَ الحيواناتِ الهادئة؛ وشاهدَ اضطرامَ النيرانِ؛ وخفَقَ صعودَهُ إلى النارِ الملتهبةِ بخَلْعِ نَعْليه؛ وطالبَ بالحريّةِ لابناء أُسرتهِ وقومِه؛ ورأى عدوَّهُ يغرقُ في غمرةِ المياهِ. وظلَّ مُقيمًا تحت الغمامةِ؛ وأروى العطش بالصّخرةِ؛ وٱلتقطَ خبزَ السَّماء؛ وتغلَّبَ على الغريبِ ببَسْطِ يَدَيْه؛ وسمعَ صوتَ البوق؛ ودخلَ في الظَّلام؛ ودخلَ مَساكِنَ المقدسِ غيرِ المخلوق الخفيَّة؛ ولَقِنَ أسرارَ الكهنوتِ؛ وقضى على الوثَنِ؛ وتوسَّل إلى الله؛ وأعادَ الشَّريعة التي حطّمها خُبثُ اليهودِ. وقد أشعّ بالمجدِ؛ وإذْ ارتفعَ إلى مثلِ هذه الأعالي، ظلَّ يضطرم رغبةً وظلّ متعطِّشاً إلى الأكثر، وهو لا يزالُ في عطشٍ شديدٍ إلى ما نهلَ منه وعلّ؛ وكما لو كانَ بعدُ مفتقرًا إلى كلِّ شيء، راح يطلبُ ما يَصْبو إليه، سائلاً اللّهَ أن يتجلّى له، لا بمقدارِ ما يستطيعُ الاشتراك فيه، بل كما هو في ذاتِهِ.

هذا ما تشعرُ به، على ما أعتقدُ، النفسُ العامرةُ بالمحبّة، والمضطرمةُ رغبةً في الجمالِ الجوهريّ، النفسُ التي لا يزالُ الرجاءُ يشدُّها، ممّا شاهَدتْه، إلى ما هو أعلى، والتي تُغذّي دائمًا رغبَتَها في ما لا يزالُ خبيئًا، بما تكتشِفُه أبدًا. فيتّضحُ من ذلك ان العاشقَ الميتَّم بالجمالِ، وهو ينَالُ ما يبدو له أبدًا طَيْفًا لما يَرغبُ فيه، يصبو إلى الامتلاءِ من صورةِ المثال الأعلى نفسِها. وما تطلبهُ بجرأةٍ النفسُ التي تتسلّقُ جبل الرغبة هو ان لا تتمتّعَ بالجمال من خلال المَرايَا

والانعكاسات بل وجهًا إلى وجه. والصوتُ الإلهي يهبُ ما يُطلب منه، بما يرفضهُ من أمورٍ، مقدّمًا بكلامٍ قليل عالمًا من الأفكار: فجودُ الله يمنّ على النفس بتحقيقِ رغبتِها؛ ولكنه لا يَعِدُها بالطمأنينةِ أو الشِّبَع[٦٠]. وهو ما كان ظهرَ بنفسه لخادمه لو كان من شأنِ تلك الرؤيةِ ان توقِفَ رغبةَ الرّائي. ففي هذا تقومُ رؤيةُ اللّهِ الحقيقيّة، في أنّ من يرفعُ إليه عينَيْهِ لا يتوقّفُ ابدًا عن الصُّبوّ إليه. لهذا يقول: «أمّا وجهي فلا تستطيعُ أن تراهُ لأنّه لا يراني إنسانٌ ويعيشَ». والكتابُ المقدسُ لا يعني بهذا القولِ أن هذهِ الرؤيةَ قد تكونُ عاملَ موتٍ للذينَ ينعمونَ بها؛ إذ كيف يكونُ وجهُ الحياةِ عاملَ موتٍ لمن يقتربونَ منه؟ وإذْ كان الكائنُ الإلهيّ مُحْييًا بجوهره، ثم إذْ كانت ميزةُ الطبيعة الالهيّة الخاصّة ان تكونَ منزّهةً عن كل مَحدوديّة[٦١]، فالذي يفكّر في ان الله شيءٌ محدودٌ، يبتعدُ عَمَّن هو الكينونةُ بجوهرِهِ، ويبقى عندما يتوهَّمهُ النشاط النسبّي للعقل كينونةً وهي لا تملك الحياة؛ لانَّ الحياة الحقيقية هي الكائنُ بجوهره؛ والحال ان هذا الكائنَ لا يُدركهُ الإدراك. فاذا كانت الطبيعةُ المُحْيِية تفوقُ الإدراك، فما ندركهُ بالعقل ليس الحياةَ؛ والذي ليس حياةً لا يستطيع ان يمنحَ الحياة. وهكذا فموسى ينال ما يرغب فيه ولكنّه لا يَنال ما يُشبعُ رغبتَهُ.

---

(٦٠) كان الشِّبَع κόρος حجر العثار في لاهوت اوريجانس، فسأمُ الشيء المملوك كان سبب السقوط، وسيظل سببًا دائمًا لتكرار السقوط. وقد تغلّب غريغوريوس على ذلك بمذهب الامتداد المتواصل والتطوّر الذي لا حَدَّ له.

(٦١) الله لا نهاية له ولا حدود، وكل معرفة بشريّة محدودة، وكل ما نعرفه عن الله هو دون حقيقة الله؛ فمعرفة الله هي اذن في التطاول المتواصل إلى معرفته. وهذا مذهب غريغوريوس.

وموسى يَرى في ما قيلَ له أَن الإلهيَّ في طبيعتهِ لا نهايةَ له ولا يحدُّه حَدّ؛ فلو جُعِلَ له حَدٌّ لكانَ من الضروريّ التطلّعُ إلى ما بعدَ هذا الحدّ، لانَّ ما هو محدودٌ ينتهي بالضرورة عند شيءٍ ما؛ وهكذا فالهواءُ هو حدُّ الأشياء التي في الهواء، والماءُ حدُّ الكائناتِ التي في الماء؛ فالسّمكةُ يُحيط بها الماءُ من كلِّ جهةٍ، والعصفورُ يُحيط به الهواء، بحيث ان السمكةَ يحدُّها الماءُ الذي يغمرُها، والعصفورُ يحدُّهُ الهواءُ الذي يُحيطُ به. وهكذا إذا كان الإلهيّ محدودًا كانَ من الضروريّ ان يُحيطَ به شيءٌ غريبٌ عنه، وأن يكون الحاوي أكبرَ من المُحْتوى، فذلك أمر يشهدُ به المنطِقُ. والجميع مُتّفِقونَ على ان الأُلوهَةَ هي الجمالُ الجوهريُّ؛ وما كانَ من طبيعةٍ غير طبيعةِ الجميل كانَ بالضرورةِ شيئًا غيرَ الجميل. وما كان خارجًا عن الجمالِ فهو معدودٌ في أسرةِ الشرِّ. وقد ثبتَ ان الحاويَ أكبرُ من المُحتوى؛ فمن الضروري اذن ان يتّفقَ الذين يقولونَ بأنَّ الجميلَ محدود، على أنَّ الشرَّ يحيط به؛ وإذ كان المُحتوَى أصغرَ مما يحتويهِ، كان من ذلك ان الأَقوى هو الغَالب. وهكذا فمن حصرَ الجميلَ في حدٍّ من الحدودِ أخضعَهُ لسيطرةِ ضدّهِ. وهذا أمرٌ غيرُ معقول. فتكونُ النتيجةُ ان لا شيء يحيطُ بالطبيعةِ غيرِ المَحدودِة. وغيرُ المحدودِ يُفلِتُ بطبيعته من قبضة العَقل. وهكذا فالرّغبةُ في الجمالِ التي تشدّ إلى هذا التَّصعيدِ، لا تتوقّفُ ابدًا عن الامتدادِ ما دامت تَتقدّمُ في مسيرتِها نحو الجمال. وهذه هي في الحقيقة رؤيةُ الله، أي أن لا يكون أبدًا إشباعٌ لهذه الرَّغبةِ[٦٢]. ولكنْ

(٦٢) تطوّرت الفكرة عند غريغوريوس، إذ كانت الرؤية في سيناء في عدم الرؤية.

يجبُ على النَّفسِ، وهي دائمةُ التشوُّفِ إلى الله، ان تكونَ مضطرمةً بالرغبةِ في ألن تزدادَ رؤيةً وقد أصبحتِ الرؤية ممكنةً[٦٣]. وهكذا فما من حدٍّ يستطيعُ أن يُوقِفَ حركةَ الصعودِ نحو الله، إذ إنَّ الجمالَ لا حدَّ له، والرغبةَ المُتزايدةَ التي تشدُّ إليه لا يوقفُها شِبَع[٦٤].

ولكن ما هذا المكانُ الذي قيلَ إنّه عند الله؟ وما هذهِ الصخرةُ؟ وما النُّقرةُ التي في الصَّخرةِ؟ وما يدُ اللّهِ التي تُظلِّلُ مدخلَ النُّقرةِ في الصخرة؟ وما اجتيازُ الله؟ وما القَفا الذي وعدَ الله موسى برؤيتهِ وكان موسى يطلبُ رؤية الوجه؟ يجبُ أن تكونَ كلُّ حقيقةٍ من هذهِ الحقائقِ شيئًا عظيمًا جدًّا وجديرًا بكرَمِ المُعْطي، حتى يَبْدوَ الوعدُ بها، بعد العددِ الكبير من التجلّياتِ الممنوحةِ للخادمِ العظيم، أعظمَ وأسمى. فكيفَ التوصُّل، من هذا النصِّ، إلى معرفةِ القمّةِ التي يرغبُ موسى، بعد هذهِ المراحلِ التّصعيّديّة الكثيرة، ان يَبلُغها، والتي يُمهّدُ لبلوغِها بسلوكِه هو الذي يجعلُ «كل شيءٍ في خدمةِ من يحبّ الله» (روم ٨: ٢٨)؟ والله يقولُ: «هوذا عندي موضعٌ». فالفكرةُ تتمشّى تمامًا مع ما رأيناهُ آنفًا. فالكلامُ على مكانٍ لا يدلُّ على حيّزٍ مُحدّدٍ كمّيًّا – والقياس لا يجري إلاّ على ما هو من رُتبة الكميّات – فيكون في هذا الكلام إشارة إلى حقيقةٍ غيرِ محدودةٍ وغيرِ ذاتِ نهايةٍ، وذلك على سبيلِ التمثيلِ بالحيّزِ القابلِ القياس. وهوذا ما يريدُ أن يُفهمَنا على وَجهِ التقريب: بما أنّك، يا مُوسى، مشدودٌ إلى ما هو

(٦٣) لا ينكر غريغوريوس إمكان رؤيةٍ حقيقيّة لله، ولكنه يُنكر ان تستوعب الرؤيةُ جوهر الله.

(٦٤) وهكذا بلغ غريغوريوس نهاية برهانه على ان الكمال حركةٌ تطوريّة لا تنقطع.

أَمامُ برغبةٍ شديدة، وبما أنَّ انطلاقَك لا يعرفُ التَّعب، بل يتشوّفُ ابدًا إلى ما هو أبعدُ، فاعلَمْ ان لديّ مكانًا واسعًا جدًّا بحيثُ إنك إذا حاولتَ اجتيازَهُ لا تجدُ أبدًا حدًّا لمحاولتِكَ. ولكنَّ تلك المحاولةَ هي، من ناحيةٍ أُخرى، ثباتٌ. فهو يقول: «أجعلُكَ على الصخرة». وفي هذا مُقارَقةٌ غريبةٌ لا مثيلَ لها: أي ان يكونَ الثباتُ والتحرُّكُ أمرًا واحدًا. فالذي يَتقدّمُ لا يكونُ واقفًا، والواقفُ لا يكونُ مُتقدِّمًا. وهنا يتقدَّمُ في حالِ كونه واقفًا. فما معنى ذلك؟ انه يَعْني ان الانسانَ بقدرِ ما يظلُّ ثابتًا في الخيرِ، يتقدَّمُ في طريق الفضيلة. والذي ينزلقُ ويتعثَّرُ، في مسيرةِ أفكاره، لعدمِ ثباتِ قدمهِ في الخير، ويتردَّدُ ويترجرجُ، على حدِّ قولِ الرسول، (أف ٤ : ١٤) مضطربًا ومتقلّبًا في نظرتهِ إلى طبيعةِ الاشياءِ، كيف يستطيعُ أن يَنْدفعَ نحو ذروةِ الفضيلة؟ والذينَ يتسلّقونَ كثيبًا من الرَّمل، عبثًا يُوسعون الفَشْخ، وعبثًا يبذلونَ الجهد، لأن الرّمل بانهيالهِ يردُّهم أبدًا إلى حيثُ كانوا: هنالِكَ حركةٌ مبذولةٌ، ولكن لا تقدُّمَ في هذه الحركة. أمّا إذا «انتاشَ أحدٌ قدميهِ في الهاوية» (مز ٣٩ : ٣) على حد قولِ صاحب المزامير، وثبَّتها على الصَّخرة – والصخرةُ هنا هي المسيحُ، مِلءُ الفضيلة – فاندفاعُه يُصبح سريعًا بمقدارِ ما يكونُ أشدَّ رسوخًا وصمودًا في الصلاح، على حدّ قولِ بولس (طالع ١ كور ١٠ : ٥؛ و ١٥ : ٥٨)؛ ورسوخهُ يكونُ له جناحًا في انطلاقِهِ نحو الأعالي، وقلبُه يكون شبهَ مجنّح برسُوخِهِ في الصَّلاح. هكذا عندما أرى اللّهُ موسى المجالَ شجَّعهُ على الإسراع؛ وعندما وعدَهُ بإقامتهِ على الصخرةِ بيّنَ له طريقةَ الإسراع[٦٥].

---

(٦٥) في هذا المقطع يقارن غريغوريوس ما بين الحركة البيولوجيّة الدوريّة والسكونيّة،

وأمّا المجالُ الذي في الصَّخرةِ والذي سمّاهُ الكتاب «نُقرة» فقد فسَّرهُ الرسولُ الإلهيُّ في كتاباتهِ قائلاً ان مسكنًا غيرَ مصنوعٍ بيدٍ بشريّة أُعِدَّ لنا في السّماءِ (٢ كور ٥ : ١)، ونحنُ نرجوهُ لليومِ الذي تُنْقَضُ فيه خَيْمَتُنا الأرضيّة. فالذي «أتمَّ الشّوْط» على حدِّ قولِ الرسول، في هذا الميدانِ الفسيح الذي يَدْعوهُ الكتاب الالهيّ «موضعًا»، والذي حفِظَ الايمانَ، و «ثبّتَ قدميهِ على الصَّخرةِ»، يُكَلِّلُهُ المُشرِفُ على الألعابِ بإكليلِ العَدالةِ. وقد سُمِّيت هذه المكافأة، في الكتاب، عدّةَ أسماءٍ. فالحقيقةُ الواحدةُ دُعِيت «نُقرةَ الصَّخرة»، وفي غيرِ مواضع «فِردوسَ السَّعادةِ»، و«المَقْدِسَ الازليّ»، و«المسكِنَ عند الآب»، و«حِضنَ إبراهيم»، و«أرضَ الأحياءِ»، و«ماءَ الرَّاحةِ»، و«أورشليمَ السَّماويّة»، و«ملكوتَ السَّماواتِ»، و«جزاءَ المختارينَ»، و«إكليلَ النِّعَم»، و«إكليلَ السَّعادة»، و«إكليلَ البَهاءِ»، و«البرجَ الحصينَ»، و«وَليمةَ العيدِ»، و«عرشَ الله»، و«كرسيَّ العدلِ»، و«المكانَ المُعيَّن»، و«سِرَّ المَقْدِس». فنحن نقول إنَّ دخول موسى في الصّخرةِ يَعني ما تَعْنيهِ هذه التَّعبيراتُ؛ اذ إنَّ بولس يدعو المسيحَ «صَخْرة» (١ كور ١٠ : ٤)، ونحن نُؤمِن بأن جميعَ الخيراتِ المرجوّة مكنونةٌ في المسيح، ونحن نعلمُ أن فيه «جميعَ كنوزِ» الصالحات (كول ٢ : ٣)، ومَن كان فيه شيءٌ من الصَّلاح، كان بالضَّرورةِ في المسيح الذي يحوي كلَّ صلاح.

والحركة الروحيّة التقدميّة والرسوخيّة.

إتّباع الله

مَن تقدَّم إلى هٰهُنا، وظلَّلَتْهُ يدُ الله، على حدِّ الكلمةِ التي قيلَتْ لموسى – ويدُ اللّهِ هي، كما لا يَخْفى، القدرةُ الخلاَّقةُ التي تخلقُ الكائنات، الابنُ الوحيدُ، الذي به كانَ كلُّ شيء (يو ١ : ٣)، الذي هو، في آنٍ واحد، مجالُ من يَجرونَ (انه حلْبَةُ السباقِ، على حدّ قوله)، وصخرةُ الراسِخين، ومسكنُ المُستريحين – هذا يَسْمعُ اللّهَ يدعوهُ، ويكونُ وراءَهُ، أي انه «يتبعُ الربّ» (تث ١٣ : ٤) وفْقَ وصيّةِ النّاموسِ. إنها الدَّعوةُ التي أحسنَ داودُ فهمَها عندما قال، للذي «جعلَ العليَّ مُعْتَصَمَهُ»: «انه يُظلِّلكَ بأجنحتِهِ»، وهذا وأَن يكون الانسانُ وراءَ الله شيءٌ واحدٌ؛ فالقَفا من وراءُ. وعندما يصيح داود ويقول: «ان نفسي معتصمةٌ بك ويمينُكَ تَعْضُدني»، كم يتّفقُ مزمورُهُ مع التّاريخ! فكما ورد في المزمور ان اللّهَ يعضدُ بيمينِهِ مَن يعتصمُ به، كذلك يَرِدُ في تاريخ موسى ان يدَ الله تظلِّلُ من ينتظرُ في الصّخرةِ النداءَ الإلهيّ، وتطلب تَلْبيتَهُ. والربُّ نفسه الذي كلّم موسى هذا الكلامَ، متى جاءَ لإتمام شريعتهِ، سيخاطبُ تلاميذه على النَّهجِ نفسهِ موضحًا معنى ما قيلَ بشكلِ رموزٍ. «إذا أرادَ أحدٌ أن يَتْبعَني»، لا «إذا أراد أحدٌ أن يتقدّمني» (لو ٩ : ٢٣). ولِلذي سأله في شأنِ العملِ المطلوبِ لوراثةِ الحياةِ الأبديّةِ عرَضَ الأمرَ نفسَه قائلاً: «تعالَ ٱتبَعْني» (لو ١٨ : ٢٢)؛ والذي يتبعُ يكونُ مِن جهةِ القَفَا.

وهكذا فالتعليمُ الذي يتَلَقّاهُ موسى، وهو يطلبُ رُؤْيَةَ الله، في شأنِ الطريقة التي تُمكِّنَ من رؤيةِ الله، هو التّالي: اتّباعُ اللّهِ حيثما

يقودُ، هو رؤيةُ اللّهِ. «فاجتيازُ» الله يعني أنه يقودُ من يتبعُهُ. فليس بإمكانِ من يجهلُ الطريقَ أن يُسافر في أمانٍ إذا لم يتبعِ الدَّليل؛ فالدَّليلُ يدلُّهُ على الطريقِ بتقدُّمهِ له. والذي يتبعُ لا يَحيدُ عن الطَّريقِ القويمِ إذا ظلَّ وراءَ من يقودُه؛ أمّا إذا قادَتْهُ حركتهُ إلى هُنا وهُنا، أو وجَّهَ نظرهُ إلى وَجْهِ دليلهِ، فإنه يأخذُ في طريقٍ غير التي يَدُلُّهُ عليها الدَّليلُ. وقد قيلَ لِلمَقُود: «لن ترى وَجْهي»، أي «لا تُقابل دليلَك وجهًا لِوَجْهٍ»؛ لأنك تجري عند ذاك في اتّجاهٍ غيرِ اتّجاههِ. والخيرُ لا يعاكسُ الخيرَ بل يَتْبَعُهُ. وما هو على اتّجاهٍ مُغايرٍ يعاكِسُ الخيرَ. فالرّذيلةُ على اتّجاهٍ يُغايرُ الفضيلة. ولكنْ لا يُمكنُنا ان نتصوّرَ الفضيلةَ معاكِسةً للفضيلةِ. وهكذا فموسى لا يتّجهُ غيرَ اتّجاهِ الله، بل ينظرُ إليه من وراءُ؛ ذلك أنَّ من ينظرُ إلى وجههِ يموتُ، على حدِّ ما جاءَ في كلام الله: «لا أحدَ يرى وجهَ الربِّ ويعيش»[٦٦]. وهكذا ترى كم يَنْبغي للإنسانِ أن يتعلَّم اللحاقَ باللهِ واتِّباعَهُ؛ إذ إنه بعدَ هذه التصَّعيداتِ السَّاميةِ، وهذه التجلّياتِ الحافلةِ بالرُّعبِ والمجدِ، يكادُ الإنسانُ الذي تعلَّمَ السيرَ وراءَ اللّهِ، وبلغَ نهايةَ حَياته، أن يُعَدَّ أهلاً لهذه النعمة. فباتّباعِه اللّهَ هكذا يكونُ في نجوةٍ من أيِّ عائقٍ من عوائقِ الخَطيئةِ.

---

(٦٦) طريقة انفرد بها أيضاً غريغوريوس في مجال الحياة الروحيّة: أن لا يُكتَفى بتطلُّب الله، بل أن تُترك له القيادة، فيقود إلى حيث يريد. إنّها مذهب الاستسلام للمشيئة الإلهيّة.

١٢٢ ـــــــ

الصخرةِ، وغارقًا في النُّقرةِ تُظلِّله يدُ اللّهِ، وتابعًا دليلَهُ مِن الخلفِ، غيرَ مواجهٍ لهُ، ولكن ناظرًا إلى قفاهُ. ولأنَّه تبعَ اللّهَ أصبحَ طوباويًّا، كما ظهرَ ذلك في كونهِ نجَا من سِهامِ الحسَدِ. وقد حاولَ الحسدُ أن يَرْمِيَهُ بسهامِهِ، ولكنَّ السهم ما كان ليبلغَ الأَعالي التي بلغَها موسى. فوتَرُ الشرِّ كان عاجزًا عن قذْفِ سَهْمِهِ إلى البعيدِ فيبلغَ موسى بعدَ الذين بلَغهم؛ وقد بلغَ هارونَ ومريم، فأصبحَا كقوسِ حسدٍ، وقذفَا موسى بسِهامِ الكلامِ. ولكنَّه كانَ بعيدًا عن مشارَكَتِهما في الشرِّ، ومنصرفًا إلى معالجةِ من كانوا فريسةَ ذلك الشرِّ؛ فلم يَنْقَدْ لغريزةِ حبِّ البقاءِ أمام الذين كانوا يَعْملونَ على الإيقاع به، بل كانَ يَشْفعُ فيهم لَدى الله، مُظِهرًا بأعماله، على ما أَرى، أنَّ من تَحميهِ درعُ الفضيلةِ، لا يُمزِّقهُ نصل السِّهامِ؛ فهو يَحُتُّ نصلَها، وصلابةُ الدّرعِ تردُّ السَّهم. والدرع التي تقي من جميعِ السهام، يجعلُها اللّهُ نفسُه على من يُحارب في سبيل الفضيلة. وقد كُتبَ بحقّ: «ٱلْبَسوا الربَّ يَسُوعَ» (رو ١٣ : ١٤). تلك هي الدّرعُ التي لا تُثلَمُ، والتي مكّنَتْ موسى من تعطيلِ قوسِ النشّابِ الشرّير. وقد انحلَّت علَيها مُهَاجمةُ المهاجمين؛ وإذ كان حكمُ القضاءِ العادلِ واقعًا عليهم، لم ينسَ موسى الرّابطَ الذي كانَ يَرْبطهُ بهم طبيعيًّا، فقامَ شفيعًا يشفعُ في أَخَوَيْهِ لدى الله. ولو لم يَسِرْ في خطى اللّهِ الذي بيَّن لهُ أن السَّيرَ وراءَه هو آمنُ طريقٍ إلى الفضيلةِ، لما كانَ فعلَ ذلك.

لِنُواصِلْ كلامَنا. عندما عجزَ عدوُّ البشَرِ الطبيعيّ عن الإيقاعِ بموسى، حوّل حربَه نحو الضُّعفَاءِ، فرمَى الشَّعبَ بسهمِ الشَّرَهِ، وأيقظَ

فيهم مذَاقاتِ المآكل المصْريّة، وجعلَهُم يُفضِّلون الأطعمةَ المصريّةَ على الطَّعامِ السّماويّ. ولكنَّ موسى ظلّ متطلِّعًا إلى فوقُ، مُتعاليًا على مثل هذهِ الشهوةِ، وممتدًّا بكلِّ قواهُ إلى الميراثِ الآتي الذي وَعَدَ به اللّهُ أولئك الذين يَخْرجُونَ روحيًّا من مِصْر، ويسيرونَ في الطريقِ المؤدّيةِ إلى الأرضِ التي يجري فيها اللَّبَنُ مَمْزوجًا بالعسَلِ. ولهذا أرسَل سُعَاةً يُطلِعُونَهُ على محاسِنِ تلك الأَرضِ. وأنا أَرى أنَّ الذينَ رجَعوا بأَخبارِ الرَّجاء الصَّالحِ هم الاسْتِعَداداتُ الصادِرَةُ عن الإيمانِ التي تَدْعَمُ الرجاءَ في ما أُعدَّ من خيراتٍ؛ وأمَّا الذين يَقِفونَ موقفَ الحذَرِ من الرَّجاءِ الصالحِ فهم الأفكارُ المُعاكِسةُ التي تُضعفُ الإيمانَ بالأُمورِ المَوْعودِ بها. وموسى لم يعبأْ بالأقوالِ المُخالِفةِ، ومالَ بثقةٍ إلى من يَحْمِلُ أخبارًا سارَّةً عن تلك الأرضِ. وكان يشوعُ على رأسِ مَن حملُوا الأَخبارَ المشجّعة؛ وكان يُؤيّدُ بسلطتهِ الإيمانَ بالأُمورِ الموعودِ بها. وقد مالَ إليهِ موسى، وفي نفسِهِ رجاءٌ رَاسخٌ بالخيرِ الآتي الذي رأَى نموذجًا منهُ في العُنقودِ الخلاَّبِ الذي جاءَ به يشوعُ من هناك مُعلَّقًا بِعقَلةٍ من خشب، وانّك، عند سماعِكَ الكلامَ على يشوعَ الذي يُطلِع على حالِ تلك الأَرض، وعلى العُنقودِ المعلّق بخشَبٍ، تُدركُ ما الأَمرُ الذي تُثبِّتُ رؤيتُهُ موسى في آمالِه. فالعنقودُ المعلّقُ بخشبةٍ ليسَ سِوى العنقودِ المُعَلّقِ بخشبةٍ في الأيّامِ الأَخيرة، والذي يُصبح دَمُهُ شرابَ خلاصٍ للذين يؤمنونَ. بهذا كلِّهِ كان موسى يَسبقُ ويُخبرُنا رمزيًّا بأنهم «كانوا يشربون الخمرَ، دمَ العنب» (تث ٣٢: ١٤)، وكان يُرْمَزُ بذلك إلى الآلامِ الخَلاصِيّة.

حيّة النّحاس

ويُسْتأْنَفُ السّيرُ في البرّيّةِ، على يأسِ الشَّعبِ من الخيراتِ الموعودِ بها، وقد أَرهقَهُ العطشُ؛ فيعودُ موسى إلى الصّخرةِ يُفجر منها الماءَ في البرّيّةِ. وهذا يُعلِّم روحيًّا ما معنى سرَّ التّوبةِ[٦٧]. وهكذا فإن الذين ٱرتوَوْا من الصَّخرةِ ثم مالوا إلى شهوةِ البطن والفَرْج، وإلى ملذّاتِ المصريّين، يُحكَمُ عليهم بالجُوع، ويُحْرَمون من الخيراتِ التي كانوا يتمتّعونَ بها؛ إلاّ أنَّه بإمكانِهم ان يَعُودوا بالندامةِ إلى التقاءِ الصّخرةِ التي ابتعدُوا عنها، وأن يفتحوا مجرى الماءِ، فيشربوا من اليَنبوعِ؛ والصّخرةُ تتفجَّرُ ماءً لمن يجعلُ ثِقَتُه في أقوال يسوعَ أكثر مِمّا يَجعلُها في أقوالِ أعدائهِ، ومَن، بِرَفْعهِ عينَيْهِ إلى العنقودِ المعلَّقِ والمُدمَّى لأجلنا، يُفجِّر ينبوعَ الصّخرةِ بِضَرْبِها بالعَصا الخشبيَّة[٦٨].

ولكنَّ الشعبَ لم يتعلّم بعدُ السَّيرَ في طريقِ عظَمةِ موسى. انه لا يزالُ مَشدودًا بالرَّغباتِ الحقيرة، ومائلاً إلى مَلذَّاتِ مصر. والتاريخ يُظهر بذلك أنّ الطَّبيعةَ البشريّةَ جانِحةٌ إلى هذا الميلِ بوجهٍ خاصّ لِكونها عرضةً للمرضِ من ألفِ باب. ولهذا، فكالطبيبِ الذي يَحُول بفَنّهِ دون انتصارِ المرض، لا يدَعُ موسى الشرَّ يُسيطِرُ على البشرِ حتى الموت. وإذ كانت رغباتُهم الفاسدةُ تُثيرُ ثعابينَ في لدغاتِها سمٌّ قتّالٌ

---

(٦٧) قد يشير سرّ التوبة هذا عند غريغوريوس لا الى الندامة الداخليّة وحسب، بل الى المصالحة الكنائسيّة أيضاً.

(٦٨) لقد شبّه الماء المتفجّر من الصخرة بالدم والماء اللذين خرجا من جنب يسوع على الصليب.

يَقضي على من يقعُ فريستَها، عَمِلَ المشترعُ الكبيرُ على إبطالِ سَوْرَةِ الثَّعابينِ الحقيقيّة بشكلِ ثُعْبَانٍ. وقد يكونُ من المفيدِ أن نُوضح اللُّغْزَ. فلا يوجدُ إلا تِرْياقٌ واحِدٌ لمُعالجةِ الشهوات المُنحرِفَةِ هو الطَّهارةُ التي يَبثُّها في نُفوسِنا سِرُّ الدِّيانةِ؛ وأهمُّ ما يَنطوي عليه سِرُّ الإيمانِ هو النَّظرُ إلى آلامِ من قَبِلَ أن يتألَّمَ لأجلِنَا؛ والآلامُ هي الصليبُ. والذي يَنْظرُ إلى الصَّليبِ، وفقَ ما يُبيِّنُه الكتابُ المقدَّسُ، لا يُؤذيهِ سمُّ الرَّغبات. والنّظرُ إلى الصَّليبِ هو أن يجعلَ الإنسانُ حياتَه كلَّها مَيْتةً للعالمِ ومصلوبةً (غلا ٦ : ١٤) بحيثُ لا تستطيعُ الخطيئةُ أن تؤثّرَ فيها وتجرحَها؛ وهذا يعني، على حدِّ قولِ النبيّ، أن يُسَمِّرَ الإنسانُ جسَدَهُ في خوفِ اللّهِ. والمِسمارُ الذي يضبطُ الجسدَ هو العِفَّةُ. وإذْ كانت الرغبةُ المُنحرفةُ تُخرجُ من الأرضِ الأفاعي المُميتة – لأن كلَّ واحدٍ من مُخلَّفاتِ الشَّهوةِ الرديئةِ أفعى – لهذا يَجْعلُ النَّاموسُ أمامَ عيونِنا مَن يتجلّى على الخَشَبة. وهذا شكلُ الأفعى وصُورتُها، لا الأفعى، كما يقول بولس الإلهيّ: «في شبه جسدِ خطيئةٍ» (روم ٨ : ٣). فالأفعى الحقيقيّةُ هي الخطيئةُ؛ ومن يَمِلْ إلى الخطيئةِ يتّخِذْ طبيعةَ الأفْعى. ولكنَّ الإنسانَ قد حرّرهُ مِن الخطيئةِ مَن اتّخذَ صورةَ الخطيئةِ، الذي جعَلَ نفسَهُ شبيهًا بنا نحن الذينَ كنّا مُتطلِّعينَ نحو صورةِ الأفعى؛ به امتنعَ الموتُ المُتأتّي من اللَّدغاتِ ولكن الأفاعي نفسَها لم تُقتل. وهكذا فالذينَ ينظرونَ نحو الصَّليبِ لم يَعودوا خاضعينَ لموتِ الخطَايا المشؤومِ، ولكنَّ الشهوة التي تعَملُ في جسَدِهم وتُقاوِمُ الروح لم تمُتْ موتًا كاملاً (غلا ٥ : ١٧). ولدَغاتُ الرغبةِ كثيرًا ما يشعرُ بها المُؤمنونَ أنفسُهم؛ ولكنّ الإنسانَ الذي ينظرُ

نحوَ من ارتفَع على الخشبةِ، يتغلّبُ على الشَّهْوَةِ مُبطلاً عملَ السّمّ بِخَشْيةِ الوصيّة كما لو كانَ ذلك بدواءٍ. وأَنْ تكونَ الحيّةُ المرفوعةُ في الصَّحراءِ رمزًا لِسِرّ الصليب، فصوتُ الربّ يُعلنُهُ بوضوحٍ عندما يقول: «كما رفعَ موسى الحيّةَ في البرّيَّةِ هكذا ينبغي ان يُرفَع ابن البشر» (يو ٣: ١٤).

الكبرياء

وتعود الخطيئةُ إلى السَّيرِ على الخطّ الطّبيعي، ووَفْقَ منطقٍ سَيّئٍ، وتَتقدّمُ تقدُّمًا منتظمًا كما لو كان ذلك على طريقةِ التّسلسُلِ. والمشترعُ، وهو الطبيبُ البارعُ، يقدّم الدواءَ الملائمَ للمرض. فبعدما أُبطِلَ عملُ لَدْغ الأفاعي بمجرَّد النّظرِ إلى شبهِ الحيّة – وأنتَ تَفهُم فهمًا كاملاً معنى هذا الرَّمْزِ الذي سبق الكلامُ عليه – راح الماكرُ الذي ينسجُ لنا الأحابيلَ المختلفة، يبتكرُ نوعًا آخرَ من الخَطِيئة، يمكنُ الآنَ أيضاً أن يُلْمَسَ حُدوثهُ عندَ الكثيرين. فبعدَما تمكّن البعضُ، بحياةٍ قَشِفة، أن يُهدِّئوا سَوْرةَ الشهوة، تدافعوا نحو الكَهَنُوتِ، مازجينَ الكبرياءَ بتدبيرِ اللّهِ، ومتوسّلين لذلك بالدَّسائسِ البشريّةِ والمحاولاتِ الشخصيّة. وهذا ما يجعلُه تاريخُ موسى سببَ الشَّقاءِ البشريّ الذي يبعث على هذا النَّوعِ السيّئ من الإثم. فعندما تَتوقَّفُ الأرضُ عن إنتاجِ أَفاعي الشَّهوة، بسببِ الايمانِ بمن رُفِعَ على الخشبة، وبعدما تتمُّ الغلَبةُ على اللدغَاتِ السّامّة، ويَخْمدُ ميلُ الشهوة، تبرز علّةُ الكبرياء بدورها. فيجول في فكر البعض ان المكُوثَ في المركز المعَيَّن

لهم أمرٌ خَسِيسٌ، فيتهافتُونَ على رُتْبةِ الكهَنُوتِ، ويعمَدُونَ إلى الدسِّ لإبعادِ مَن مَنحهم اللّهُ هذهِ الرُّتبةَ المقدَّسةَ. وقد بادَ هؤلاءِ بعدما ابتلعَتْهم الهاويةُ، وما تَبقَّى من آثارهم على الأَرْضِ التهمَتْهُ الصَّاعِقةُ. والكتابُ المقدسُ يُعلِّمنا بهذه القصّةِ ان لِتعْالي الكبرياءِ حدًّا، هو الهبوطُ إلى ما تحتَ الأرضِ؛ وقد يحسنُ من ثمَّ تحديدُ الكبرياءِ بأنها صعودٌ إلى الأَسْفلِ. ولَئِن ذهب اكثرُ الناسِ إلى خلافِ ذلك فليس في الأمر عجَبٌ: إذ انَّ أغلبَ الناس يرونَ في خاتمةِ الكبرياء ٱرتقاءً إلى درجةٍ دونَها سائرُ البشر. ولكنّ حقيقةَ الأحداثِ المُورَدةِ تُؤيِّد التحديد الذي قدّمناهُ؛ فاذا كان الذينَ ترفَّعوا على غيرهم ابتُلِعوا إلى الأسفَلِ، بعد إذ فَغَرتِ الأَرضُ فُوهتَها، فلا يمكن رفضُ التحديدِ الذي حدّدنا به الكبرياء، أي الصعود إلى الأسفل. وانّنا إذا تأمَّلنا في هذهِ الأمورِ نرى أنّ موسى يُعلِّمنا ان نكون مُتواضعينَ، وان لا يأخُذَنا الزّهُو بأعمالنا الصَّالحة، بل أن نعيش دائمًا في الحاضِر باستعداداتٍ أبدًا حسنة. فليس تغلُّبُنا على الشَّهواتِ الجسديّة كافيًا لأن يجعلَنا في مأمنٍ من مُهاجمةِ ضروبٍ أُخرى من المُيول. فكل مَيْلٍ عثرةٌ في كونهِ ميلاً؛ واختلافُ الميول لا يجرُّ اختلافًا في العثرة؛ فمن انزلقَ في حقلِ الشهوة يسقطُ، ومن عَثَّرتْهُ الكبرياءُ ينقلبُ. وما من عثرةٍ يَرْتضيها صاحبُ الرُّؤية الحسنةِ. ولكن يجب تجنُّبُ كلِّ عثرةٍ من حيثُ هي عثرة. وهكذا فإذا أبصرتَ أيضاً اليوم أحدًا، وقد تطهَّر بعضَ التطهُّر من فساد الشهوة، يحسبُ أنه فوقَ الآخرين، ويندفعُ نحو الكهنوت، فقدِّر أنك تراهُ هاوِيًا إلى ما تحتَ الأرضِ في أعالي الكبرياء.

الكهنوتُ الحقيقيّ

الشريعةُ تُعلِّمنا بما يلي أن الكهنوتَ أمرٌ مقدّسٌ وغيرُ بشريٍّ. انها تُعلِّمه هكذا. فبعدما كتبَ موسى على عَصا كلِّ قبيلةٍ اسمَ صاحبها، وضعَ العِصيَّ في خِباءِ الشهادةِ، لكي تكونَ العصَا شهادةً على اختيار العليّ، عندما تظهر عليها، دون سائر العِصيّ، علامةُ معجزةٍ إلهيّة. وهذا ما حَدث. فقد ظلّت عصِيُّ القبائلِ على حالِها، وأما عصا الكهنةِ فقد أَفْرخَت بمعزلٍ عن أيّ تَنْديةٍ خارجيّةٍ، ولكن بقدرةٍ من الله انبثّت فيها، فأَورقَتْ وأَثْمرت؛ وقد نضجَتِ الثمرةُ، وكانت لوزةً. وهذا الحادثُ علَّم الجميعَ أن يَخْضعوا وأن يَلْزَموا أمكنتَهم. أمّا الثمرةُ التي نبتَتْ على عصَا الكهنة فيجب ان نرى فيها كيفَ يجبُ أن تكونَ الحياةُ في الكهنوتِ: انها في الخارج قاسيةٌ وخَشِنة، وفي الداخل مُنْطوية في الخفاءِ والظُّلمة على ثمرةٍ شهيّةٍ. وهذه الثَمرةُ تظهر عندما تُصبحُ صَالحةً للأكل، وتتفسّخ جلدتُها الخشنَةُ، وتنكسرُ قشرتها الخَشَبيّة. فإن رأَيْتَ أن حياةَ احد الكهنة مرفَّهةٌ، وأنه يَتعطّرُ، وأنَّ لونَ وجههِ ورديٌّ، كما هي الحالُ عند الكثيرينَ الذين يَلْبسُونَ الكتّان والأُرجُوان، ويَتسَمَّنونَ بالمآكل الدَّسِمةِ والغنيّة، ويشربونَ الخمرةَ المختارة، ويسبحونَ في أحسن العطورِ، ويَعمدونَ إلى كل ما يُدغدِغُ الحواسّ عند من يَتمتَّعون بملذّات الحياة، تستطيع ان تقول بحقّ في شأن هذا الكاهنِ ما قاله الانجيل: عندما أَرى هذه الثمرةَ لا أعرفُ منها الشجرةَ الكهنوتيّة (لو ٦: ٤٣). ثمرةُ الكهنوتِ غيرُ هذه الثمرة: تلك كانْتِ الإماتةَ، وهذه المُتعة؛ تلك لم تُغذَّ بالنَّدى الأرضيّ، وعلى هذه تتَدفّقُ مجاري الملذّات صابغةً بلونِها الأحمرِ وجهَ الحياةِ.

الطريق الملكيّة

عندما يتخلّصُ الشعبُ من هذا الميلِ، يجتازُ الحياةَ الغريبةَ، على الطريق الملكيّة حيثُ تقودُهُ الشَّريعةُ ولا تدَعُهُ ينحرفُ إلى هنا أو إلى هناك. فمن السهلِ أن ينحرفَ المسافرُ نحو الأَطراف. وكما لو كانتِ الدَّربُ على شفًا حادٍّ، وإلى جانِبَيْها مَهْويانِ، يُصبح السائرُ عليها في خطرٍ إذا حادَ عن الجادّةِ إلى هنا أو إلى هناك؛ فِمن كلتا الجهتينِ يَنْتَظِرُ المَهوى من يَنْحرف. هكذا تطلبُ الشريعةُ مِمّن يَتَّبعُ آثارهَا أن لا يَنحرفَ، يمينًا أو شمالاً، عن الطريقِ التي هي، على حدِّ قولِ الربِّ، ضيّقةٌ وحَرِجة. وهذا الكلامُ يُعلِّمنا أنَّ الفضَائِلَ في الوسَط. فكل شرٍّ يحدثُ يكون حدوثه بزيادةٍ أو بنُقْصانٍ بالنسبةِ إلى الفَضِيلة؛ وهكذا بالنسبةِ إلى الشَّجاعة، فالجبانةُ نقصٌ في الفضيلة، والتهوُّرُ زيادةٌ. وما كانَ خاليًا من الزّيادةِ والنقصِ وجازَ بين نَقِيصَتَيْنِ سُمِّي فضيلة. كذلك الأمرُ بالنسبةِ إلى سائرِ الأشياءِ التي نعمُلها في سبيلِ الخير، فهي تمرُّ في الوسَط، بين طرفَيْنِ خطِرَيْنِ. وهكذا فالحكمةُ وسَطٌ بين الدَّهاءِ والغباءِ؛ فلا خِداعُ الحيّةِ ولا غباءُ الحمامة جديران بها، إذا نُظر إليهما في ذاتِهما منفردَيْنِ؛ ولكنّ مَا يَتوسَّطُهما ويصلُ ما بَيْنهما يصبحُ فضيلةً. ومن يَفْتقر إلى قناعةٍ فهو فاسِق، ومن زاد في القناعةِ فضميره مريض، على حدّ قول الرسول: الواحدُ يَسْتسِلم للملذاتِ في غير انضباطٍ، والآخَر يزدري الزواجَ كما لو كان زِنًى. والحدّ الوسط هو القناعةُ. وبما أنَّ العالم، على حدّ قول الربّ، «تحت حكمِ الشرّير» (١ يو ٥: ١٩)، وأنّ كل ما يناقضُ الفضيلةَ، وما هو رذيلةٌ، هو غريب

عن أَتباعِ الشريعة، فالإنسان، الذي تقومُ حياتهُ كلُّها بسفَرٍ في أرجاءِ هذا العالم، يُتمُّ في أمانٍ سفَرَ الفضيلةِ الضروريَّ هذا، إذا لزمَ الطريقَ العظمى بدقّةٍ وثباتٍ، تلك الطريق التي عبَّدتْها الفضيلةُ ومهَّدتْها، بدون ان ينحرفَ البتَّةَ نحو الدُّروبِ غيرِ الممهَّدةِ التي تُقدِّمها الحياةُ من هنا وهناك.

سِحْرُ الشهواتِ

بما أنَّ مهاجمةَ العَدُوِّ تشتدّ، كما قلنا، بقدرِ ما تنمو الفضيلةُ، وأنّ العدوَّ يَترقّبُ الفُرصَ لكي يجرَّ إلى الشرِّ في كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ نموِّ الفضيلةِ، فعندما يتقدّمُ الشَّعبُ في الحياةِ وَفْقَ ما يشاء الله، يعمَدُ العدوُّ إلى ضروبٍ أُخرى من الصِّراعِ على طريقةِ الخططِ الحربيّةِ المتطوّرة. وأَصحابُ هذه الخُطَطِ عندما يواجهونَ جيشًا مُصْطفًّا للقِتَال بقوّةٍ يَصعبُ التغلّبُ عليها، يعمدونَ في قِتالهِ إلى المكَايدِ والمكَامِن. وهكذا يفعلُ أبو الشرِّ، فإنَّه لا يأخذُ أقوياءَ الشريعةِ والفضيلةِ بالمُواجهةِ والمُنَاجَزة، بل يُهاجمهُم سِرًّا بالمكايدِ والمكَامِنِ. ويَسْتِعينُ بُحلفائهِ السَّحَرةِ على مَن يُقاومونَ سِحْرهم. وتاريخُ موسى يَجْعلُنا أمامَ السِّحر في شخصِ عرّافٍ ومُتكهِّنٍ، كانتَ له قدرةٌ على الإيذَاءِ بفِعل الأبَالِسَةِ، وكانَ في خدمةِ طاغيةِ المِدْينيّينَ لإنزالِ اللَّعناتِ على مَن كانوا يعيشونَ لِلّهِ، وقد حوَّلَ اللعنةَ إلى بَرَكة. ونحن نعلمُ، بما اعتبرَناهُ سابقًا، أنَّ السِّحْرَ نفسَهُ لا يفعَلُ في مَن يَعيشونَ على الفَضيلةِ، وانّ مَن يعضُدهم العَوْنُ الإلهيّ هُم فوقَ كلِّ مُهاجمة.

والتاريخُ يشهدُ بأنّ الشخصَ الذي أَتَيْنَا على ذِكْره كانَ يُمارِسُ الكِهانةَ بالطُّيور، مَدَّعيًا أنَّ بين يديهِ حُظوظاً وأنه يَسْتَطْلِع صوتَ الطُّيور؛ وأنه كان قبلاً يَسْتطلعُ نهيقَ الحِمارِ ما كانَ يَسْعَى إلى معرفته؛ وهكذا كان يُلقي بآياتهِ على لسانِ الحيواناتِ وبصَوْتها، بفعلِ عملٍ شيطانيّ[٦٩]. فنَهيقُ الحمارِ يبدو لنا في الكتابِ المقدَّس وكأنّه نُطقٌ فصيحٌ؛ وهذا يُبيّنُ لنا أنَّ منه كانوا في مأمنٍ مِن تضليلِ الأَبالِسَة، قد يأتيهم العِلْمُ، لا عَن طريقِ العقل، بل عن طريقِ صوتِ البهائمِ بأَساليبَ من هذا النَّوع. وبانقيادِ هذا المتكهّن للصَّوْتِ الغريب، عرفَ ممّا كانَ مَصْدرَ أضاليله، أنَّ لِمَن استأْجرَ عليهم قوّةً لا تُغلَب.

وفي القَصص الإنجيليّ التاريخي نرى عصابةَ الشَّياطينِ، الجوقَةَ، تهمُّ بمقاومَةِ قُدرةِ الربِّ، ولكنّها، عندما اقتربَ «مَن بيدهِ كلُّ شيء»، جهرَتْ بقدرتهِ الفَائقةِ الطَّبيعة، ولم تُخْفِ الحقيقةَ، مُعلنةً أنَّ هذي هي الطبيعةُ الإلهيّة التي سوفَ تدينُ الأشرارَ وتُعاقبُهم؛ فقد ارتفعَ صوتُ الشياطين قائِلاً: «نحن نعلمُ أنَّك قُدّوسُ الله» وأنّك «أَتَيْتَ قبل الأوان لِتُعذِّبنا». وهذا ما جرى أيضاً حينذاكَ، عندما راحتِ القوّةُ الشيطانيّةُ تُطلع بِلْعامَ على مَناعةِ الشعبِ وقدرتهِ التي لا تُغلَب.

وإذا كانَ لنا ما نقوله، ونحن نُوفِّقُ ما بين التاريخِ وشُروحِنا السَّابقة، فهو أنّ مَن يُريدُ إنزالَ اللعنةِ بمَن يعيشونَ في الفضيلةِ، لا يستطيعُ أن يفوهَ بأيِّ كلمةِ سُوءٍ أو شُؤْمٍ، بل تتحوَّلُ معهُ اللعنةُ إلى

(٦٩) كان من عادة الآباء أن يُرجعوا السِّحر الى عملٍ شيطاني.

بَرَكةٍ، وهذا يعني أن مسَاءَةَ الشَّتيمةِ لا تنالُ من يعيشونَ في الفضيلةِ. فكيفَ يُقذَفُ بالجشَعِ مَن لا يَمْلِكُ شيئًا؟ وكيف يُتهَّم بالخلاعةِ مَن يعيشُ في الوَحْدةِ والتَّنسُّك؟ وبالغضبِ من يتّصِفُ بالحِلْم؟ وبالكبرياءِ من هو مُتواضعٌ؟ أو بأيّ مذمَّةٍ أُخرى مَن يُعرَفونَ على خلافِ ذلك، ومن يَسعَوْنَ إلى ان تكونَ حياتُهم بعيدةً عن كلِ مذمّة، حتّى، على حدّ قول الرسول، «يُخزَى أَعْداؤُنا الذينَ لا يملكونَ ما يرشقُوننا به». ولهذا يقولُ صوتُ مَن دعَوْهُ لِيَلْعنَ: «كيف ألعنُ مَن لا يلعنهُ الربّ»، أي كيف أشكُو مَن لا يَدَعُ مَجالاً للشكوى، ومَن حياتُه، في توجُّههِ نحو اللّهِ، بمأمنٍ مِن تجريحِ الخطيئة؟

بنات موآب

لَئِن أخفقَ أبو الخطيئةِ في هذا المجالِ، فهو لم يتوقَّفْ عن مُعالجةِ طرائِدهُ بالمكيدةِ والخِداع، فيعملُ في حقلِ ابتكاراتهِ الشرّيرةِ، مُحاولاً أن يجرَّ الطَّبيعةَ إلى الشرِّ بالفِسقِ، وكأنّه الطُّعْم في الشَّصِ؛ والإغراءُ بالمُتعةِ الحسيّةِ هو في الحقيقةِ بمثابةِ طُعْمٍ لكل نوعٍ من أنواعِ الفِسق، يجتذبُ بسهولةٍ النفوسَ الشَّهوانيّة إلى شصِّ الموت. والملّذةُ النِّجسةُ هي أشدُّ ما يجرُّ الطّبيعةَ إلى الشرِّ في غيرِ عُسر. وهذا ما جرَى إذ ذاك. فأولئك الذين انتصَرُوا بقوّةِ السِّلاح، وأظهروا أَنَّ كلَّ مقاومةٍ بالحديدِ أضعفُ من أن تنالَ قوَّتهم، والذين هَزمُوا بشجاعتِهم وإقدامِهم كتائبَ الأعداءِ، أصابَتْهُم سِهام الرِّجسِ التي صوَّبَتْها إليهم النِّساءُ وجَرَّحتهم؛ كانوا أقوى من الرجالِ، وقد تغلّبتْ

عليهم النِّساءُ. وهكذا فما إنْ ظهرَتْ لهم النِّساءُ، مقدّماتٍ أَشكالَهنَّ في مكانِ السلاح، تناسَوْا للحالِ مدَى ما لَهُم من بَسالةٍ، واسْتَسْلموا للشهوةِ تُذيبُ مناعَتَهُم. وبينَ مَن كانوا يشاهدونَ ذلك، ذهبَ البعضُ – وذلك أَمْرٌ طَبيعيٌّ – إلى البكاءِ والنحيبِ أمام الاقترانِ بالأجنبيّاتِ المحظورِ، لأنَّ الاتّحادَ بالشرِّ فقدانٌ لمساندةِ الخير. وقد احتدمَ عليهم غضبُ اللّهِ في الحال؛ ولكنّ فِنحاسَ الغَيورَ لم ينتظر حكمَ الله لمعاقبةِ الخطيئة، فقامَ هو بنفسه قاضيًا وسيَّافًا. وقد حمله غضبهُ، على من أنساقوا في طريقِ الفسق، على ان يقوم بمهمّةِ الكاهنِ، ويُطهِّرَ الإثمَ بالدَّمِ، لا دمِ حيوانٍ بريءٍ، لم يَشتركْ في نجاسةِ الفِسق، بل دمِ من تَضاجَعُوا في الخطيئةِ. وحَرْبتُهُ التي اخترقتِ الجسدَيْنِ هدَّأَتْ سورةَ العدلِ الالهيّ، مازجةً الموتَ بمُتْعةِ الأَثمَةِ.

قد يكونُ للبشر في هذهِ القصّةِ عِبرةٌ مُفيدة، فهي تُعلِّمنا أنّهُ ما مِن شرٍّ بينَ الشرورِ الكثيرةِ التي تُحدِقُ بالقلب البشريّ أشدُّ وطأةً علينا من شهوةِ الجسدِ. فبعدَما تفوَّق الشعبُ الإسرائيليُّ على خَيَّالةِ المِصريّينَ، وتغلّبَ على عماليق، وكان هولاً على الأُمَّةِ المُجاورة، وبعدما انتصرَ على كتائبِ المِدْينيّين، نَسْتغربُ سقوطَه في عبوديّةِ المرضِ لمجرّدِ رُؤيتهِ نساءً غريباتٍ؛ وهذا يُبيّنُ، كما سبقَ القولُ، أَنَّ شهوةَ الجسدِ عدُوٌّ لنا تَصعبُ مقاومتُهُ ويصعبُ ردُّهُ. وقد تغلّبَتْ هذه الشهوةُ على الإنسانِ منذُ ظهورِه، وقبلَ أن يخضعَ لقوّةِ السِّلاح، وراحت تُلبسُه لباسَ الخِزي والعارِ، وتنشرُ على الملأ خِزْيَهُ وعارَهُ. وقد أظهرتْ أن الإنسانَ لدَيها يُصبحُ بهيمةً، وأنَّ الغريزة الشرِّسةَ

والحيوانيّةَ التي تشدُّهُ إلى الفِسق، تجعلهُ غافِلاً عن طبيعتِهِ البشريّةِ، إلى حدٍّ أنه لا يُخفي خلاعته، بل يحتفلُ بعارِ شَهْوتِهِ، ويتزيّنُ بشَيْنِ فِسْقِهِ، متمرّغًا كالخنازيرِ في مَوْحِلِ الفسادِ، في غير تستُّرٍ ولا حياءٍ.

ماذا يُعلِّمُنا هذا الحدَثُ؟ انه يُعلِّمنا، وقد أدركْنا ما لآفةِ الشَّهوةِ الجسديّةِ من جاذبٍ إلى الشرّ، أنَّه لا بُدَّ لحياتِنا من أن تبتعدَ عن مثلِ هذا الجوارِ ما أمكنَها ذلك، بحيثُ لا يُتاحُ لهذا الشرِّ أن يتسرَّبَ إلينا تسرُّبَ قبَسٍ من النار يُضرِمُ باقترابِهِ النارَ الشرّيرةَ؛ وسُليمانُ يُعلِّمُنا في سفر الأمثالِ (٦ : ٢٧ – ٢٨) أن لا نمسَّ الجمرَ برجْلٍ عاريةٍ، وأن لا نأخُذَ نارًا في حِجْرنا، وكأنَّ بامكانِنا أن نظلَّ على الحريّةِ الداخليّةِ بمقدارِ ابتعادِنا عمّا يُضرم النَّار؛ أمّا إذا اقتربنا منهُ، ومَسَسْنا هذهِ الحرارةَ المُحرِقَةَ، امتدّت نارُ الشهوةِ إلى حِجْرنا يعقبُها احتراقُ القدَم، وٱلتهابَ الحِجْر. والربُّ يدعونا في إنجيلِهِ وبصوتِهِ إلى الابتعادِ عن مثلِ هذا الشرِّ بٱقتلاعِ الشَّهوةِ من عُيونِنا (متى ٥ : ٢٩). على أنَّ النظر مَدْخلُ الشرّ، ويعلِّمُنا أنَّ من فتحَ عينيهِ للشهوةِ فتح على نفسهِ طريقَ المرض. والإحساساتُ المُنحرفةُ أشبهُ بالطّاعونِ، إذا ترسَّخَتْ في الإنسانِ لا تَنتهي الاّ بالموتِ.

الكمال في التقدّم

وهنا أرى أنه لا بُدَّ من التوقُّفِ عند هذا الحدِّ من الكلام والاكتفاءِ بما قدَّمنا للقارئ من سيرةِ موسى على أنَّه نموذجٌ من نماذج الفضيلةِ؛ والذي قلناهُ لن يكونَ، لِمَن جدَّ في طلبِ الحياة المُثْلَى،

عونًا ضئيلاً في طريقِ الحكمةِ الحقيقـيّة؛ أمّا الكَسولُ المُتراخي في أعمالِ الفضيلة فالكلامُ، مهما طالَ، لن يَأْتِيهُ بالفائدةِ المرجوّةِ. ومع ذلك فلكَي لا يُنسَى ما قلناهُ في بدءِ كلامِنا، والذي هو قوامُ فِكرتِنا، أعني أنَّ الحياة الكاملةَ هي تلكَ التي لا يَحُدُّ تقدُّمَها في الكمال أيُّ حدٍّ، وأنَّ نُموَّ الحياةِ المتواصِلَ نحو الأفضلِ هو طريقُ النَّفسِ نحو الكمالِ، فلكي لا يُنسَى ما قلناهُ، يَبْدو من الأجدرِ، بعدما سُقْنا سيرةَ موسى إلى نهايتِها، أن نُظهرَ حقيقةَ التحديدِ الذي أَعطينَاهُ؛ فالذي ٱرتقى كلَّ هذهِ المراقي، سحابةَ حياتهِ كلِّها، لم يَفُتْهُ أن يصـيرَ أبدًا متفوِّقًا على ذَاتِه، بحيثُ إنّه، على ما أرى، يُصبحُ كالنَّسرِ، وتتراءَى حيَاتهُ فوقَ الغيوم أثِيريَّةً، مُندفِعةً في سماءِ التّصعيدِ الرُّوحيّ.

لقد وُلِد موسى عندمَا كانَ المصريّونَ يَتهيَّبُون ولادةَ عِبرانيٍّ؛ وإذ كانَ الطَّاغيةُ يُعاقِبُ المولودَ بحكم الشَّريعةِ، تغلّبَ المولودُ على شريعةِ القتلِ، فقد أَنقذَهُ أوّلاً أَبَواه، ثم أولياءُ الشريعةِ أنفسُهم. والذين طلبُوا قتْلَهُ بحكمِ الشريعةِ هُمُ الذينَ لم يَقْتَصِروا على إنقاذِ حياتهِ، بل وفّروا له تَنْشئةً كريمةً، ومجالاً واسِعًا لتحصيلِ العلمِ الكاملِ. وقد تعالَى بعدَ ذلك إلى ما فوقَ مراتبِ الشرفِ البشريّ، وفوقَ العظمةِ الملكيّةِ، وعدَّ حِراسةَ الفضيلةِ والتَّزَيُّنَ بزينتِها خيرًا من الحَرسِ الملكيّ والأُبَّهةِ الملكيّة. بعد ذلك أنقذَ ابن جِلْدَتهِ وفتكَ بالمصريّ: — وتفسيرُنا الروحيُّ يرى هنا عدوَّ النَّفْسِ وصديقَها —. وبعد ذلك أوَى إلى العزلةِ والهدوءِ يُلقيانِ عليه دُروسَ الأمورِ العُليا، ويُنيرانِ نفسَهُ

بالنورِ الذي يَنْبعثُ من العُلَّيقةِ المحترقةِ. ثّم ينهضُ إلى إخوانهِ وينقلُ إليهم الآياتِ الخيّرةَ التي أتَتْهُ من فوقُ؛ وبهذا الدَّاعي ظهرت مقدرَتُهُ في ناحيتَيْنِ، إحداهما بضربِ الأعداء وصدِّهم بالضّرباتِ الكثيرةِ المُتعاقِبةِ، والأُخرى بمدِّ إخوانِهِ بالعَونِ. وقد أَجازَ شعبَه البحرَ على غيرِ أُسطولٍ من السُّفُنِ؛ وجعلَ من تثبيتِ إيمانِهم سفينةَ عبُورِهم، وحَوّلَ اللّجَّةَ أمامَ العِبرانيّينَ إلى أرضٍ جافّةٍ، وتركَ البحرَ على طبيعته أمامَ المصريّين. وقد أنشدَ نشيدَ الظَّفَر. وقادَهُ العمودُ في مسيرتهِ، وٱستنارَ بنارِ السَّماء، وأقامَ مائدةً لِطعامِ العلاءِ، وفجَّر الماءَ من الصّخرةِ، ورفعَ يديهِ للتغلُّبِ على عَماليق؛ واقتربَ من الجبلِ؛ ودخلَ في الغمامِ؛ وسَمعَ الأبواقَ؛ واقتربَ من الأُلوهةِ، وغمرَهُ مَقْدِسُ العلاءِ؛ وزيّن الكهنوتَ، وأقامَ المقدِسَ، ونظَّم الحياةَ بالشَّريعةِ، وانتصرَ أخيرًا على أعدائهِ على النحوِ الذي أتيْنا على ذكره، وختامًا لمآثرهِ جعلَ عقابَ الفسادِ على يدِ الكهنوتِ، وهذا ما مثّله غضبُ فنحاسَ وثورتُهُ على الفِسقِ. وبعدَ ذلك كلّه انتقلَ إلى جبلِ الرّاحة، ولم تطأْ رجلهُ الأرض السُّفْلَى التي يتطلّعُ إليها شعبُ الأَسافِل ذاكرًا الوعدَ المَقْطُوعَ: انّه لن يذوقَ مِن بعدُ الأَطعمةَ الأرضيَّة، هو الذي تحوَّلَتْ جميعُ اهتماماتِهِ إلى الأطعمةِ الهابطةِ من العَلاء، ولكنَّه عندما ارتفَعَ إلى قمّةِ الجبلِ نَفْسِها، وكانَ كنحّاتٍ حاذِقٍ أَنْهى تمثالَ حياتهِ كلَّه، وعندما بلغَ الغايةَ من عَملهِ بدقّةٍ، كانت النهايةُ لا ٱنْتِهاءً، بل كانت إكليلاً من المجدِ. فما الذي يَرْويهِ التاريخُ في المَوْضوع؟ – يقولُ التاريخُ إنْ مُوسى، خادِمَ اللّهِ، ماتَ بأمرٍ مِن يَهْوَه، ولا أَحدَ يعرفُ قبرَهُ، وانّ عينَيْهِ لم ينطفِئا، ووَجْهَهُ لم يلحَقْهُ فسادٌ.

خادم الله

نُدرك من ذلك كلّهِ أنَّ موسى الذي جازَ في هذه الأعمالِ الكثيرةِ قد عُدَّ أَهْلاً لأن يُدعَى بالاسمِ السَّامي «خادم الله»، وهذا يَعْدِلُ أَنّه كانَ فوقَ كل شيءٍ. فما مِن أَحدٍ يخدمُ اللّهَ ولا يكونَ أرفعَ من كلِّ شيءٍ في الدُّنيا. وهذا بالنسبةِ إليه أيضاً خاتمةُ الحياةِ الفاضِلَةِ، التي صنَعَتْها كلمةُ اللّهِ، والتي يُسمِّيها التاريخُ مَوْتًا، موتًا حَيًّا لا يَعقِبهُ دَفْنٌ، ولا يَشْخَصُ فوقَهُ قَبرٌ، موتًا لا يَجُرُّ عمى في العَينينِ، ولا فسادًا في الوجهِ.

ماذا يَعلِّمنا ذلك؟ يُعلِّمنا ذلك أن لا يكونَ لنا في هذه الحياةِ إلاّ هدَفٌ واحدٌ، وهو أن نُدعَى خُدَّامَ اللّهِ بسببِ أعمالِنا. فبعدَ انتصارِكَ على جميع الأعداءِ، المصريّ، والعماليقيّ. والأدوميّ، والمِدْينيّ، وبعدَ اجتيازِكَ الماءَ، واستنارَتِكَ بنورِ الغمامةِ، وتحويلِكَ بالعودِ المياهَ صَالِحةً للشُربِ، وآرتوائِكَ من الصَّخرةِ، وتذوُّقِكَ طعَامَ العلاء، وبعدَ سَيْرِكَ، بالطّهارةِ والعفّةِ، في طريقِ الجبل؛ وبعدما وصَلْتَ إلى هنا، وهبطَتْ عليك معرفةُ السِّرِّ الإلهيّ بصوتِ الأبواق، واقتربتَ من اللّهِ بالإيمانِ في الظُّلمةِ الكالِحةِ، حيثُ وقفتَ على أسرارِ المَقْدِس وعلى عظَمةِ الكهنُوتِ، وبعدما نَحَتَّ قلبَكَ حتى يَنْقُشَ اللّهُ نفسهُ عليهِ الآياتِ الإلهيّةَ التي وضعَها الله[٧٠]؛ وبعدَما حطّمتَ الوثنَ الذهبيَّ، أي بعدَما محَوْتَ مِن حياتِك شهوةَ الإثراءِ؛ وبعدَما

(٧٠) كان غريغوريوس قد رأى في اللوحينِ رمزًا إلى التجسّد، وهو هنا يرى فيها صورة لعمل الروح القدس في النفس.

ارتقيتَ عاليًا بحيثُ اصبحتَ في تحصُّنٍ من سحرِ بِلعامَ، – وهذا السِّحرُ هو سَرابُ هذهِ الحياةِ الباطلُ، الذي يخدَعُ البشرَ فيصبحونَ كالسّكارى الذين تناولوا شرابًا سحريًّا في إحدى كؤوس كِرْكابا[٧١]، وفقدوا طبيعتَهُم الخاصَّةَ، وأصبحوا كالبهائم –؛ بعدَ مُرورِك بكل هذا، وبعد أن تكونَ عصَا الكهنوتِ قد أُورقَتْ لك، بدونِ أيّ ندًى أَرْضيّ، بل بمجرّدِ طاقتِها الذّاتيّةِ للإثمارِ، وأعطَتْ لَوْزةً خشنةً ومُرَّةً في ظاهِرها، وحلوةً وطيّبةً في داخلها؛ وبعدما تكونُ قد لاشَيْتَ كلَّ ما يُهدّدُ كرامتَكَ، وأغرقْتَهُ في الأرضِ كما غَرِق دَاثانُ، أو أَحرقْتَهُ في النار كما احترق قورح (عد ١٦) عند ذلك تقتربُ من الغَايةِ، وأعني بهذه اللفظةِ ما يحدثُ لأجلهِ كلُّ شيءٍ، وهكذا فغايةُ زِراعةِ الأرضِ هي التمتُّعُ بثمرِها؛ وغايةُ بناءِ المسكن هي أن يُسكَن؛ وغايةُ التجارةِ هي الإثراءُ؛ وغايةُ مشقّاتِ ميدانِ السِّباق هي الفوزُ بالإكليل؛ كذلك غايةُ الحياةِ الروحيّةِ هي ان يُدعَى الإنسانُ خادِمَ اللّهِ، يُضافُ إلى ذلك أن لا يُدْفنَ الإنسانُ في قبرٍ، أي أن تكونَ حياتهُ عاريةً ومجرَّدةً من جميعِ أباطيلِ الدُّنيا. والكتابُ المقدّسُ يورِدُ لنا ميزةً أُخرى لهذهِ الخدمةِ قائلاً: إنَّ عينَهُ لم تَعْشَ، ووجهَهُ لم يَفْسُد. وأنَّى للعينِ الغارثقةِ في النُّور أن يحجبَها الظلامُ الغريبُ عنها؟ وكيف يَقبلُ فسادًا من قامَ سحابةَ حياته كلها بأعمالِ عدمِ الفسادِ. فالذي كان في الحقيقةِ صورةً للّهِ، ولم يتحوَّلْ في شيءٍ عن الشَّبه الإلهيّ، يحملُ في ذاتهِ ميزاتهِ، ويُظهرُ في كل شيء مشابهةً كاملةً لِمثالهِ

(٧١) كيركابا ساحرة مشهورة في الأوذِيسَّه.

١٤٠ ـــــــ

الكريم، ان تتّجهَ نحو المِثال، وان تنقلَ إلى حياتِكَ الخاصَّةِ ما بَيَّنهُ لنا تأمُّلُنا الرُّوحيُّ في الأحداثِ التاريخيّةِ، وأن يقولَ اللّهُ إنّك صديقُهُ، وأن تكونَ في الحقيقةِ هكذا؛ ذلك هو الكمالُ الحقيقيُّ، وهو أن لا يُزاوِلَ الانسانُ الحياةَ الخاطئةَ خَشيةَ العقابِ، على سُنّةِ العبيدِ، ولا يُكبَّ على الصَّلاح طمَعًا بالثّوابِ، مُتَّجِرًا بالحياةِ الفاضِلَةِ في ذهنيّةِ الكسبِ، بل يتطلّع إلى ما فوقِ جميعِ الخيورِ المُعَدَّةِ لنا بحسبِ الوُعودِ، ولا يخشى إلاَّ أمرًا واحدًا هو أن يفقدَ الصَّداقة الإلهيّة، ولا يَعُدّ شريفًا ومحبوبًا إلاّ التوصُّل إلى صَداقةِ الله[٧٤]، وفي هذا كلّهِ، على ما أرى، كمالُ الحياةِ الذي في وسْعِك ان تحصُلَ عليه – وسيكونُ موفورًا على حدِّ علمي – إذا ارتفعَتْ نفسُك نحو ما هو في الحقيقة عظيمٌ وإلهيّ؛ والغُنْم سيكونُ من نصيبِ الجميع في المسيحِ يسوعَ ربِّنا الذي له المجدُ والقدرةُ مدى الدهورِ. آمين.

(٧٤) الخوف والرجاء والمحبّة هي في أصل الكمال.

فهـرس

الصفحة

غريغوريوس النيصيّ ٧

أولاً: حياته ٧

ثانيًا: آثاره ٩

توطئة ١٧

القسم الأوّل: تاريخ موسى ٢٣

القسم الثاني: اعتبارٌ بحياة موسى ٤٥

الولادة الروحيّة ٤٥

العلّيقة المحترقة ٤٩

لقاء الملاك ٥٥

التجارب الأولى ٥٨

ضربات مصر ٦٠
عناية إلهيّة وحرّيّة ٦٣
موت الأبكار ٦٨
الخروج من مصر ٧١
أموال مصر ٧٣
عمود الغمام ٧٥
عبور البحر الأحمر ٧٦
المراحل في البرّية ٧٩
المنّ ٨١
المعنى الكتابيّ ٨٤
جبل المعرفة اللاهوتيّة ٨٦
الظُّلمة ٨٩
المقدِس السماويّ ٩٣
المقدِس السُّفليّ ٩٨
الحلّة الكهنوتيّة ١٠٠
اللوحان المحطّمان والمُصلحان ١٠٥
التطاول ١١٠
اتّباع الله ١٢٠
فوق الأهواء والميول ١٢٢
حيّة النُّحاس ١٢٥

الكبرياء ١٢٧
الكهنوت الحقيقيّ ١٢٩
الطريق الملكيّة ١٣٠
سِحْر الشهوات ١٣١
بنات موآب ١٣٣
الكمال في التقدّم ١٣٥
خادم الله ١٣٨
الخاتمة ١٤٠

صدر حتّى الآن، في سلسلة «**أقدم النصوص المسيحيّة**»:

أوّلاً: سلسلة النصوص اللاهوتيّة

١ – اقليمندوس الرومانيّ. راعي هرماس
تعريب الأب جورج نصّور

٢ – القدّيس باسيليوس الكبير: مقال عن الروح القدس
تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكّور ق. ب.

٣ – مار أفرام السريانيّ: منظومة الفردوس
تعريب الأب روفائيل مطر اللبنانيّ

٤ – يوحنّا الذهبيّ الفمّ: في أنّ الله لا يمكن إدراكه
عرّبه وقدّم له الأب جورج خوّام البولسيّ

٥ – غريغوريوس النزينزيّ: الخطب اللاهوتيّة
عرّبه وقدّم له الأب حنّا الفاخوري

٦ – غريغوريوس النّيصيّ: حياة موسى أو الكمال في مجال الفضيلة
تعريب الأب حنّا الفاخوري

ثانيًا: سلسلة النصوص الليتورجيّة

١ – الديداكيّة. التقليد الرسوليّ، نافور ادي وماري خولاجي سيرابيون. عهد الرب
تعريب الأبوين جورج نصّور ويوحنّا تابت

٢ – **كيرلّس الأورشليميّ: العظات**
تعريب الأب جورج نصّور

٣ – ويلي روردورف: **السبت والأحد في تقليد الكنيسة**
(نصوص من القرن الأوّل حتّى القرن السابع)
تعريب الأخت مارسيل هدايا

٤ – **القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ: ثماني عظات في المعموديّة**
عرَّبه الآباء حنّا الفاخوري والأب جوزف معلوف والأب مشير عون

ثالثًا: سلسلة النصوص الكتابيّة

رابعًا: سلسة النصوص النسكيّة

١ – **كتاب المراقي**: عرّبه عن السريانيّة المطران فرنسيس البيسريّ